# القدّاس الأحمر

القدّاس الأحمر

ورثة الدم ، ج.2

خالد عمّار

تصميم الغلاف:

رقم الإيداع:26491 /2017

I.S.B.N:978- 977-6640-11-5

الطبعة الأولى 2018م




الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

نائب المدير : رامي غزالة

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

خالد عمّار

# القداس الأحمر

## ورثة الدم

## الجزء الثاني

رواية



# تمهيد

مرحبا بك.

أرى أن لديك من الشغف ما يكفيك لتستمر في التحري عن أخبار عائلة النجاتي ، حسنا ، لكن قبل أن نواصل دعنى أذكرك بما وقع سلفاً.

كما عرفت ؛ عائلة النجاتي أسسها الشيخ النجاتي ، حقيقة لا أدري لماذا يطلقون على النجاتي وأحفاده ومن هم على شاكلتهم لقب شيخ ، يغلبني الظن بأن في هذا تعدي وتدنيس لجلال لقب الشيخ ، ربما هي عادة أهل القرى في مناداة من يتحلى بقدرات تعجز عقولهم عن استيعابها وتفسيرها بهذا اللقب .. متى بدأ هذا ؟ من كان أول فعلها ؟ لا أحد يعرف ولا أحد يهتم.

دعنا من هذا الاستطراد ، ولنعود لعائلة النجاتي ، تلك العائلة التي اتخذت مساراً في الحياة لا يسلكه الكثيرون ، مساراً جعل لهم سطوة وقوة رغم أنهم لم يظهروا هذه القوة أو يتباهوا بها ، مساراً أنزل عليهم الثروة الكبيرة والتي لم تظهر عليهم كذلك ، أحفاد النجاتي على مر السنوات لهم من الثروة والقوة ما لهم ، لكن لا يعلم بهذا إلا القليل ، وكان عليهم ألا يظهروا ما تحقق لهم ، هم اختاروا التخفي بإرادتهم.

بتنا نعرف عن العهد الذي تم بين النجاتية وبين المارد ناصورى ، النجاتية عائلة من السحرة ، يستعينون بالجن ، قبيلة مواليه لناصورى وتأتمر بأمره ، قبيلة من الجن الأرضي ، عهد تم تحت شروط وضوابط خاصه ، يتقرب فيها الساحر للجان بقربان بشري ،

قربان يقربه من الجن فيساعدوه ويعينوه على تحقيق ما يريده ، ويقربه أكثر لمقعده الخالد في الجحيم ..

مرت السنوات وتغيرت الأحوال ، حتى وصلنا لآخر من يحمل العهد من عائلة النجاتي .. عارف النجاتي ، منذ صغره وقع الاختيار عليه هو ليكون وريث العهد المشئوم ، كان الاختيار من بين الشقيقين الصغيرين أن ذاك عارف ومصطفى ، يمكنك أن تقول هنا أن الطرفين اختارا بعضهما البعض ، أما مصطفى فأصابه الفزع من هذا المصير ، ورغم أن عائلة النجاتي بعيدة كل البعد عن أي التزام ديني ، إلا أن شيئاً ما أصاب مصطفى في قلبه وعقله ، إصابة جعلته يرجف خوفاً ، وسعى بنفسه ليعرف أمور دينه الذي احتجب عن العائلة كلها.

كبر الصغيران ، تزوج مصطفى لأنه في حل من حمل العهد ، ولما أنجب ابنه الأول هاني قرر أهم قرار في حياته ، وربما في حياة العائلة كلها .. سيهرب من جحيم النجاتية ويفر بأسرته.

انتقل مصطفى للقاهرة ، استقر بأسرته الصغيرة ، ورزقه الله بولد ثان ، نادر ، وانتهت العلاقة بين مصطفى وعارف ، لم يحاول مصطفى الاتصال ولو مرة واحدة بأخيه عارف ، وستر سر عائلته عن أسرته وأبنائه حتى فارق الحياة وغادرها هو وزوجته ، بعدما نضج أبناه ، هاني تزوج من زميلته في العمل سارة ، وأسس أسرة صغيرة وله ولدان صغيران، أما نادر فلم يكن يسعى لتكوين أسرة بعد ، كان يعيش حياته ببعض الطيش ، المهم أن الآخوين لم يعرفا عمهما قط ، ولم يعرفا حقيقة عمله.

بدأ الأمر كله باتصال هاتفي تلقاه هاني من محامي يخبره بأن له عم اسمه عارف توفاه الله ، وترك لهما وصية في رسالة تطلب منه وأخيه العودة لمنزل العائلة في القرية ليجدا ميراثهما المخبّأ هناك ،

منزل وقرية لا يعرفان عنهما شيئاً ، بل وعم لم يسمعا باسمه من والديهما قبلها.

انتقل هاني وسارة ونادر بالفعل للبحث عن الميراث في منزل العائلة القديم ، في ليلتهم الأولى اختفى نادر ، وحدثت لهاني وزوجته بعض الحوادث التي أسست للرعب صرحاً في نفسيهما،وفي ليلتهما الثانية وفي أجواء مقبضة انضم لهم شخصان هما: زهران والفتاة نورا، عرفا أن زهران كان خادم الشيخ عارف ومعاونه ، واكتشفا أن نورا اختطفها زهران لسبب غامض ، وبعدما وجدا الميراث وكشفا المخبأ قررا المغادرة وانقاذ نورا مما ينويه زهران.

وفي تطور سريع وجدا زهران يحاول تقديم نورا قرباناً للشيطان في طقس عجيب قبل أن ينضم للأحداث ذلك المحامي الذي اتصل بهاني أولاً.

تطور الأمر واختفى هاني هو الآخر ، ووجدت سارة نفسها وحيدة برفقة المحامي الذي أكد لها أنه سيعيد لها زوجها ، وسيقدم لهما العون ليرحلا بما حملاه من أموال مما وجداه من الميراث.

حقيقة الأمر أن نادر لم يختفِ ، بل استضافه ناصورى في أرضه الخاصة حيث يتم تجديد عهد الشيطان بينه وبين ورثة الدم من أحفاد النجاتي ، شيصبان مساعد ناصورى استقبل نادر أولاً ، قبل أن يحضر ناصورى الذي كشف كل الأسرار أمام نادر، فعرف هذا الأخير سر النجاتية وحقيقة عارف النجاتي ، عمه الساحر.

بعد اتفاق سري تم بين نادر وناصورى طلب الأول استدعاء أخيه ليطلعه على السر بنفسه ، لذا اختطف الجن هاني ، ثم كانت المفاجأة الصادمة.

عارف النجاتي لم يمت ، بل أنه زيف خبر وفاته في محاولة ساذجة وفاشلة منه لينقض العهد مع ناصورى ، ظن الساحر أنه سيخدع الجن بخطة بلهاء ويحضر أبناء اخيه حيث تجري دماء النجاتي في عروقهم ولهم القدرة على استخراج الثروة ، وبعدها يخبرهما بحقيقة شخصه ويتقاسموا الثروة فيما بينهم.

لم يكن المحامي سوى عارف النجاتي ، الذي فوجئ بانكشاف خدعته وفشلها ، وحاول التلاعب بناصورى ليخبره بأنه تعمد كل هذه الخدعة فقط ليحضر هاني ونادر ليتم الاختيار من بينهما الوريث الذي يليه في العهد.

لكن سبق السيف العذل ، الخدعة لم تنطلِ على أحد ، ومن يغدر فليتحمل عاقبة أمره ،وعندما تخون عهدك مع الجن فإن العاقبة لن تقل عن روحك نفسها.

أصبح عارف النجاتي نفسه هو القربان الجديد ، أُهرق دمه تقرباً للشيطان ، قرباناً قدمه حامل العهد الجديد .. نادر النجاتي.

والآن ، وقد أوجزت لك ما فات لتتذكره ، أو لتعرفه إن لم تقرأ الجزء الاول .. هيا بنا نتابع الحكاية ، وسأخبرك أمراً ما كان لي أن أبوح به سابقاً .. أنا لست راو للقصة وحسب ، بل أنني أحد من خاضوا غمارها .. لكن لن أخبرك بهويتي الآن ، أُفضل أن أتركك تحزر من أنا.

اطمئن .. ستعرف من أكون مع قرب نهاية روايتي.

# الفصل الأول

# الصعود

## (1)

داخل غرفة مغلقة مظلمة لا يمكنك أن ترى فيها حتى إصبعك، لذا؛ فسأقوم أنا بوصفها لك، هي حجرة نوم بسيطة، خزانة ملابس متوسطة الحجم، ثم فراش يتمدد فوقه رجل تجاوز الستين من عمره، وطاوله صغيرة يحيطها مقعدان خشبيان، ومرآة معلقة على واحد من الجدران الأربعة، دعك من التفاصيل والألوان واكتفي بما قلته لك، فالظلام حالك ولن تُشكل تلك التفاصيل أي فارق.

نقترب من الرجل النائم، يتحرك حركات عصبية وكأنه يصارع شيئاً مجهولاً، لو اقتربت أكثر من عينيه ستجدهما تتحركان بسرعة كبيرة أسفل جفنيه المنسبلين، من الواضح أنه يعاني داخل كابوس ما .. ها هو يتقلب بعنف و...

فلنتراجع قليلاً للخلف .. يبدو أنه سيسقط من فوق فراشه.

سقط الرجل بدويّ مكتوم، سقطته أعادته للواقع وخرج من كابوسه ومن نومه كله، يبدو عليه الوجل والقلق ... أعرف أنك لا ترى شيئاً في هذا الظلام لكني أصف لك ما يحدث .. ثق بي.

من الواضح أن الرجل لا يألف الظالم المحيط به، حقيقة الأمر لا يمكن أن تظلم حجرة نوم عادية في بيت بسيط لهذه الدرجة، لا بد أن

يتسلل القليل من الضوء من أسفل الباب أو من خصاص الشباك، كان الظلام غريباً على الرجل كما هو غريب علينا.

بلا مقدمات انفتح باب الحجرة، ربما اقتُلع الباب من مكانه فلم يعد له وجود، وسطع ضوء مبهر قوي عبر فتحة الباب، ضوء من شدته لا يمكنك أن ترى من خلاله، ضوء من تلك النوعية المؤذية للعين، فرفع الرجل كفيه محاولاً حماية عينيه من شدة الوهج.

دخل إلى الضوء رجل متناسق القوام، كان الضوء يسطع من خلف هذا القادم، فترى الرجل جسداً أسود لا تظهر ملامحه ولا تفاصيله، وكأن الضوء يساعده ليخفي شخصيته، وقف الرجل في تؤدة وثقة، وبعد لحظات وقف شخص آخر خلفه تماماً وبات هناك رجلان بالباب لا ترى ملامحهم.

حرك الرجل الساقط على الأرض رأسه بعدما ظلل عينيه بكفه الأيمن في محاولة لينظر من القادم فلم يتبينه، فسأله بقلق واضطراب:

"من أنت ؟"

لم يجبه القادم، ولم يتبين إن كان هذا القادم يبتسم أم لا، بل ظل ثابتاً على حالته للحظات، لحظات كانت كافية ليستعيد الرجل الساقط بعض من شجاعته ويعتدل جالساً، لكنه ما إن فعل حتى تقدم الرجل ومرافقه إلى داخل الحجرة ببطء مثير للأعصاب، تقدم حتى اقترب من الرجل ومع تقدمه تسلل بعض الضوء، شعاع بسيط ضعيف رغم وجود مصدر الضوء المبهر عند الباب، لكنه كان كافياً لتظهر بعض التفاصيل، تفاصيل بسيطة جعلت الخوف يتسلل لنفس الرجل على الأرض.

القادم يرتدي ملابس سوداء أو كحلية داكنة، يبدو أنه في منتصف العقد الرابع من عمره، ضعف الضوء لم يكشف من ملامحه غير عينيه، وكأن ضوءاً مجهول المصدر مسلط عليهما فقط، كانت عيناه له نظرات حادة تلقي الرعب في القلوب، لكن ليست نظرته هي ما أصابت الرجل بالوجل، بل لأن مرافقه الذي كان خلفه قد اختفى .. تلاشى تماماً من المشهد.

سأل الرجل مرة أخرى: "من أنت يا هذا؟ وماذا تريد؟"

يمكننا الآن أن نجزم بأن القادم يبتسم، ظهر أثر الابتسامة على عينيه المغلفتين بالضوء، يمكن أن نصفها بابتسامة ساخرة، لكنه حافظ على صمته الذي لا يبتغي، مال بجذعه قليلاً للأمام وكأنه يريد أن ينظر للرجل عن كثب، حدجه بنظرة غاضبه في عينيه مباشرة قبل أن يعتدل منتصباً في خيلاء، ثم فرد ذراعيه ورفعهما حتى كادا يحاذيا كتفيه، طأطأ رأسه فظهرت من العدم ثلاث حيات كبيرة، في ثلاثة مواضع من أرضية الحجرة، ثم زحفت ببطء حتى وقفت عند قدمي القادم تتلوى وتطلق فحيحها، ولما اجتمعت الحيات بين قدميه رفع رأسه من جديد ونظر في عيني الرجل نظرة كلها غضب وكراهية.

نقل الرجل بصره بين عيني القادم المحاطتين بالضوء وبين الحيات الثلاث اللاتي تتلوى عند قدمي الغريب وهو لا يفهم ما يحدث، لكنه استجمع قواه ونطق، نطق منادياً وقال:

"يا طرّاق!"

لم يتغير شيء، بل لم يجب طرّاق هذا، أما القادم فحرك ذراعيه المفرودتين إلى الأمام، ومع حركة ذراعيه سعت الحيات صوب الرجل، فتراجع الرجل في ذعر حقيقي وهو يرفع صوته منادياً على طرّاق بعبارات مختلفة دون إجابة، ظل يتراجع حتى وجد نفسه يصل للجدار

وأصبح بلا مهرب، توقفت الحيات على مقربة من قدميه، ورفعت نفسها وهي تطلق فحيحها بلا توقف، بدا وكأن الحيات تلقي نظرة على الرجل.

اندفعت حيتان بسرعة خاطفة، فالتفت الأولى حول قدمي الرجل وكبلته، والتفت الثانية حول صدره لتكبل ذراعيه، وما إن انتهتا من تقييده حتى زحفت الثالثة ببطء فوق ساقيه صاعدة في اتجاه وجهه، تسارعت أنفاس الرجل؛ وهو يحدق بعينين متسعتين في الحية التي تتسلقه، وهو يتعوذ بالله من الشياطين، لكن الحية لم تتوقف، بل صعدت إلى صدره ومنه إلى رقبته ودارت حول عنقه، ملمس جلدها الذي يحتك ببشرته كافي ليعطي قلبه التصريح ليتوقف عن العمل، لكنه لم يفعل واستمر ينبض بعنف حتى أنك لتسمع صوته.

أكملت الحية الثالثة طريقها والتفت حول رأسه بداية من عينيه، ثم غطت بقية رأسه من الأعلى، بات معصوب العينين ومقيد الذراعين والقدمين، ربطته من الحيات التي لا تتوقف عن إطلاق فحيحها، وهو كذلك لم يتوقف عن التعوذ.

لم يتضح سبب ما حدث بعدها، فقد تحرك الرجل ولا نعرف إن كانت حركته بسبب الحيات التي تكبله أم أن هناك قوة أخرى تحركه مع قيده ذي الفحيح؟

المهم أن جسد الرجل جُر حتى ارتمى أسفل قدمي القادم ثم رُفع جذعه فأصبح جالساً، هنا خفض القادم ذراعيه وأمسك فك الرجل بقسوة ليطبق فكيه على بعض، فتوقف الأخير عن التعوذ وعن النطق، وارتفع صوت أنفاسه أكثر وأكثر، مال عليه القادم وتكلم للمرة الأولى وقال:

"لن ينفعك طرّاق أو غيره"

حاول الرجل أن يقول شيئاً ما لكن يد القادم تمنع فكيه من الحركة، فخرج صوته همهمات غير مفهومة، لكنها غاضبة.

تكلم القادم بعبارات مبهمة غير مفهومة فارتجت الأرض للحظات، ومع سكونها حررت الحية عيني الرجل وزحفت لتنضم لزميلتها التي تقيد ذراعيه إلى جانبيه، فتح الرجل عينيه فإذا به في مكان مجهول، مكان واسع لا يحده حد، بلا جدران ولا سقف، أرض صخرية غير ممهدة، سماء من دخان أحمر، ثمة جبال في أماكن كثيرة، وأشجار جافة يابسة غير مورقة ولا زال القادم يكمم فمه بيمناه.

صوت أنفاس الرجل المتلاحقة هو الصوت الوحيد في هذا المكان، ظل المشهد ثابتاً للحظات تبادل فيها الرجلان نظرات لا يفهم فحواها سواهما، قبل أن يدفع القادم رأس الرجل فيسقط على ظهره ويقول بعدما تحرر فمه أخيراً:

"من أنت؟ ماذا تريد؟ .. أتعرف ما الذي سيصيبك لو آذيتني؟ .. دعني أخبر ..."

قاطعة القادم بسخرية واضحة:

"بل أعرف ما الذي يمكنني أن أُنزله بك."

صمت الرجل وهو يجول بعينيه في المكان، لم يتوقف عن اللهاث للحظة، وارتفع صوت فحيح الحيات أكثر وأكثر.

تراجع القادم بضعة خطوات، قبل أن يتفوه بعبارات غامضة، من الواضح أنه يلقي تعويذة بلغة غريبة، فتخشب جسد الرجل فجأة وبدأ يطلق صرخات ألم رهيبة، لا يمكنه أن يحرك أيّاً من أطرافه، بدأت الدماء تخرج من مواضع مختلفة في جسده، فارتفع صوته، كان

يشعر وكأن هناك أنياباً حادة تنغرس في لحمه، لكنه لا يرى شيئاً ممن يفعل به هذا.

جرته قوة خفية من جديد بسرعة خاطفة، فأصبح في لحظة تحت قدمي القادم الذي يقف في زهو، الأرضية الصخرية نبشت ظهره وأدمته.

تراجع القادم مرة أخرى بضعة أمتار، هذه المرة ظهرت أقزام مشعرة، على رؤوسها قرون صغيرة، أصابعها رفيعة طويلة الأظافر، وجوه تشبه وجوه القردة، أسنان حادة مدببة، اقتربت كلها من الرجل الذي اتسعت عيناه رعباً وقد عرف هوية الأقزام، ثم انكبوا على جسده من جديد ينهشونه بأنيابهم، وعاد الرجل لصراخه من الألم والرعب، وسالت دماؤه بغزارة هذه المرة، دام هذا العذاب لدقائق، ثم توقفت الأقزام وتراجعت، من جديد جُر الرجل ليصل تحت قدمي القادم.

نظر له القادم نظرة متشفية، قد خارت قوى الرجل بدرجة كبيرة، والجروح والدماء تغطي وجهه وجسده، والحيات اللاتي يقيدنه تصدر فحيحها بغضب، نزل القادم على ركبته وأمسك الرجل من رأسه ورفعها عن الأرض، لم يكن في جسد الرجل من قوة ليقاوم أو ليصرخ، فهز القادم رأسه قبل أن يترك رأس الرجل فتصدم الأرض بعنف.

انتصب القادم واقفاً وقال بلهجة محتقرة:

"أنت أضعف مما تصورت"

عقد ساعديه أمام صدره، وظل يتابع الرجل الذي ينزف بغزارة، ظل جامداً لدقيقة أو يزيد، ثم أشار بيده فحررت الحيات جسد

الرجل الذي كان خائر القوى بحق، فلم يحاول الحركة، وكأنه يكاد يفقد وعيه من شدة الإعياء.

قال القادم بلهجة لا تخلو من غطرسة وتشفي:

"الآن سترتاح من عذابك .. أنت أضعف من أن أنكل بك .. ولتتذكر أنك من تسببت لنفسك بهذا الألم"

أشار بيده مرة أخرى فانقضت الحيات على الرجل وأعملت أنيابها في صدره، عنقه، ووجهه، لحظات قليلة ويلفظ الرجل أخر أنفاسه، لحظات ويغادر هذا العالم، أدرك القادم أن الرجل في النزع الأخير فقال بفخر:

"تذكر أن هذا هو جزاء من يعبث مع .. نادر سلطان"

وقهقه نادر ضاحكاً في خيلاء.

## (2)

لعلك تريد الأن أن تعرف من هو الرجل الذي قُتل على يد نادر النجاتي ، تريد أن تعرف حقيقة السبب وراء تعذيبه وقتله ، هل تعرف أنني أخفيت عليك ما فعله ابن النجاتي وزبانيته في جثة الرجل؟ ما فعلوه كان من الصعب وصفه.

دعك من كل هذه الأسئلة ، فلم يحن أوان إجابتها بعد ، لكن يجب عليّ هنا أن أخبرك بما كان قبل حوالي خمسة عشر عاماً تقريباً ، ما حدث أن ذاك كان هو اللبنة الأولى في صرح نادر النجاتي المُشيّد ، صرح حصين ومكانة لم يصل إليها أي من ورثة الدم طوال سنوات ، حتى النجاتي الكبير نفسه لم يصل لمثل ما وصل إليه نادر.

سنعود معاً بالأحداث إلى تلك الليلة ، حيث كان نادر وأخوه هاني وسارة زوجة الأخير في بيت العائلة ، يبدو أنك تتذكر الآن ، ها هو البيت الكبير ، تحرك معي بسرعة حتى ننتهي من هذه الذكرى ، دعك من هاني وزوجته وذلك المأفون زهران الملتفين حول الطاولة في الصالة الرحبة[1] ، ولنتجاوز الرواق إلى حجرة عارف ، ها نحن بداخل الحجرة الغامضة نقف أمام الحائط المتخم بالنقوش خلف الفراش النحاسي العتيق ، يبدو لي أن ذاكرتك انتعشت بالآن ، لكني سأتجاوز

([1]) راجع الجزء الأول من (ورثة الدم)

الممر بين الحجرة وأرض الجان، وسأتخطى ذلك الدرج الدائري المخيف وكل تلك التفاصيل التي تعرفها أنت كما أعرفها أنا ، ولندخل مباشرة لنحضر هذا اللقاء .. اللقاء الذي كان بين نادر وناصورى.

اجتمع الاثنان في ما يشبه حجرة جلوس ذات طابع حديث بعض الشيء، غير أنها تكاد تكون خاوية إلا من المقاعد والأرائك المكسوة بالجلد الأسود ، الجدران اكتست بالأسود والأحمر ، والإضاءة من لون أحمر باهت لا تعرف له مصدراً.

ناصورى في هيئة بشرية لرجل حاد الملامح يرتدي ملابسه السوداء يجلس فوق أحد المقاعد في منتصف الحجرة تماماً واضعاً ساقاً فوق الأخرى في عظمة ، استند بمرفقيه إلى المقعد، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه في مقابل نادر الذي غمره العرق وهو يجلس مائلاً للأمام قليلاً ويستمع لما يقوله ناصورى باهتمام.

لم تتغير ملامح ناصورى وظلت عيناه الحمراء تحدج نادر بنظرة حادة وهو يقول:

"والآن وقد عرفت حقيقة عمك عارف وسر أسرار عائلتك ، وعرفت شروط حمل عهدي معكم ، هل توقعت مصير عارف ؟"

ظل نادر جامداً للحظة قبل أن يومئ برأسه بما يعني أنه فهم ما يرمي إليه ناصورى دون أن ينطق ، فتابع هذا الأخير قائلاً:

"عليك أن تعرف أن وجودك هنا الآن لهو أمر حتمي ، حتى وإن لم يقم عمك الأخرق بخدعته الساذجة تلك ، كنت سآتي بك إلى هنا بطريقتي الخاصة ، هذا لأنني اخترتك منذ لحظة ميلادك."

صمت وكأنه ينتظر تعقيباً من نادر فلم ينل مراده ، تابع بنفس الملامح التي لا تتغير ولا تنفعل:

"عارف هو أغبى أبناء النجاتي على الإطلاق ، كنت على يقين بأنه ليس كمن سبقوه ، لكنه كان الأفضل إذا ما قارناه بأبيك مصطفى ، فالأخير كانت هالته النورانية[2] كبيرة لدرجة لم نعهدها في أبناء النجاتي ، لذا وقع الاختيار على عارف .. نفس الأمر حدث معك ، يوم ميلادك كانت هالة الطاقة الخاصة بك هي الأشد ظلاماً على الاطلاق بين أفراد عائلتك .. لهذا اخترتك لتخلف عارف."

اتسعت عينا نادر في صدمة ، لقد اختاره ناصورى ليكون وريث عمه عارف ، فهِمَ سبب أنه لم يتعرض للأذى في أرض الجان هذه ، داعبت الأفكار المتلاحقة رأسه ، أصوات مختلفة تصرخ داخل عقله وتخبره بما ينتظره من سطوة وقوة ، مالت نفسه كثيراً للفكرة ، فرغم أن عينيه تنقل تعبيرات الصدمة إلا أن ملامحة لانت بسرعة ، وتراجع في مقعده ، وبدأ يتخيل ما سيصبح عليه إذا ما تحالف مع هذا المارد المتجسد في صورة الرجل أمامه.

سرح شارداً للحظة وقد شغل تفكيره نقطة هامة ، هاني أخوه ، مصير أبناء أخيه ، إذا ما تعاهد الآن مع ناصورى فسيكون عليه اختيار خليفته من بينهم ، وليس هذا هو ما يطمح إليه ، فهو يريد سلطة وقوة له فقط ، ولذريته من بعده.

استجمع شجاعته وتكلم في واحدة من المرات القليلة التي يتكلم بها في حضرة ناصورى:

"أعتقد أن شروط العهد تحتاج لشيء من التعديل"

---

([2]) كل الأجسام الحية والميتة تخرج منها طاقة كهرومعناطيسية إكتشفها العالم Semyon Krilian عام 1939م ، وأطلق على هذه الهالة من الطاقة مصطلح (Aura) ، وقد تمكن العالمان Thelma Moss an Kendall Johnson في عام 1970م من تصوير هذه الطاقة باستخدام تقنية Krilian photography في معمل خاص في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجوس ((UCLA : University of California , Los Angeles

مال رأس ناصورى لليسار قليلاً ولم تتغير ملامحه وهو يقول:

"هات ما عندك يا ابن النجاتي"

ازدرد نادر لعابه ثم قال:

"إن ما أرنو إليه أكبر بكثير مما يمكن فعله في قرية صغيرة كهذه ، يجب أن أرجع إلى القاهرة ، حيث القوة لها طعمها."

صمت وكأنه يخشي البوح بمكنون صدره ، وكأن ناصورى يقرأ ما يدور في فكره لمّا ساله:

"أهذا فقط ما تريده ؟"

صمت نادر للحظة ، أدرك أنه لا مجال للخوف ، عقله العملي أخبره بأن يعرض مطالبه كلها ، هو الآن في مفاوضات مع شريكه في صفقة ، صفقة ستغير مجرى حياته.

مال للأمام قليلاً وانطلق كمدفع يطلق كلمات:

"أريد الانتقال إلى القاهرة ، سأبدأ حياة جديدة ، سأنزع عباءة الماضي وأحرقها في الجحيم ، وسأدفن رفاتها في قاع المحيط ، انتهت علاقتي بأي شيء ارتبط به ، كل شيء .. وأولهم هاني أخي ، هو زوج جيد وأب رائع ، لكنه لا يستحق هذه القوة ، لا هو ولا أبناءه ، لذا يجب تعديل الشروط ومكان الطقوس ، ويرثني ابني من بعدي."

تعلقت عيناه بناصورى لعله يكتشف ما في نفس هذا الأخير، لكن الوجه المنحوت من جليدٍ لا يذوب، أبى أن ينفعل أو تتغير ملامحه للحظة واحدة ، لكن لحظة الصمت التي صمتها تؤكد أنه يفكر في طلباته ، تساءل ناصورى بلهجة بدت قاسية:

"أتريد أن تغير عهداً تم منذ قرن ونصف القرن من الزمان؟"

أجاب نادر بثقة مفرطة:

-"بلى"

صمت ناصورى، وطال صمته هذه المرة، جامد في مكانه لدرجة أنك قد تخاله تمثالاً من الشمع نُحت ببراعة، عيناه التي يتراقص في داخلها لهب لا تشف عن أعماقه، رغم هذه الحالة لم يرجف نادر أو يخف، بل ظل محدقاً في تلك العينين الحمراوين المشتعلتين في ثبات وقوة، لكن داخل عقله وفي أعماقه يتصاعد السؤال الكبير .. هل سيقبل ناصورى؟

للمرة الأولى منذ جلسا يخفض ناصورى كفيه بعدما فك تشابكهما وتركهما فوق مسندي المقعد، لكنه احتفظ بساقه التي نامت فوق أختها، ثم تكلم أخيراً:

"لكي تنال ما طلبت يا ابن النجاتي فعليك أن تعطيني ما أطلبه، تعديل الشروط له مقابل."

سأل نادر:

"وما هو هذا المقابل الذي تريده؟"

أجاب ناصورى:

"ستقدم لي القربان كل ثلاث سنوات بدلاً من خمس."

جاءه الرد بثقة مفرطة وأسرع مما توقع: "فليكن."

قال:

"ستذهب إلى حيث تشاء وستفعل كل ما تريده، سأكون في عونك طالما تحافظ على العهد، لكنك ستقدم القرابين ها هنا، لن يتغير المكان أبداً، وسأسمح لك بالزواج في الوقت الذي أحدده أنا، وسيكون

لابنك مثل ما لك من بعدك، واحذر أيها الطيني .. إذا فكرت في الخيانة كما فعل عمك الأحمق فلن تُسجى على المذبح إلا بعدما أنتهي من تعذيبك بنفسي."

لم يعرّ نادر تهديده أي اهتمام وقال:

"اتفقنا .. هناك أمر آخر .. أريدك أن تأتي بأخي إلى هنا لأتكلم معه ثم اتركه يرحل مع زوجته وما جمعوه من الثروة، ثم نتعامل بعدها مع عارف."

قام ناصورى من مقعده ببطء، ثم قال:

"لك ما شئت .. الآن اسجد عند قدمي واتل ما سأقوله."

انصاع نادر ، قام من جلسته وخرّ تحت قدمي ناصورى ، الذي قال بعض الطلاسم بلغة غريبة لم يفهمها نادر ، لكنه ردد كل ما سمعه ، ولما انتهى القسم نهض واقفاً ، وقف وهو يشعر بأن شيئاً ما تغيّر في أعماقه ، يُحس بأنه أصبح أكثر ثقة وشجاعة ، وبأنه قادر على فعل أي شيء ، هناك قوة تسري في عروقه مجرى الدم.

"هيا لتلقي أخاك، فهو سيهبط إلينا الآن."

قالها ناصورى ، فاهتزت الأرض ، وبدأت الجدران والأثاث تتلاشى ، وقد أحاطت بهم هالة من ضوء أحمر قوي ،حتى اختفت الحجرة تماماً وعادا إلى أرض الجن ، عندها بدأت الهالة الحمراء تتبدد في بطء ، فلمح نادر بطرف عينه هاني أخاه يندفع نحوه ..

والباقي أنت تعرفه بالتأكيد.

## (3)

عُد معي من تلك الذكريات وذاك الماضي ، عُد لحاضرنا ، لكن ليس لتاريخ اليوم ، سنعود قليلاً إلى ما قبل مقتل الرجل ، لقد تحول نادر وتغير ، بعدما حضر بنفسه التضحية برقبة عارف النجاتي جزاءً لخيانته عهده مع ناصورى ، بانتقال العهد انتقل لخدمته ابن طمياش وصار حارساً له ، جمع نادر ما تبقى من الثروة وعاد إلى القاهرة.

عاد كشخص جديد تماماً ، قطع علاقته بكل ما كان ينتمي إليه ، فلم يتصل بأخيه ولو مرة واحدة، وانقطع عن العمل فلا حاجة له به ، حتى أنه لم يطأ شقته أبداً بعدها ، بل استقر في فندق لبضعة شهور ، خلال تلك الشهور كان قد باع الشقة الصغيرة فأصبح من الصعب معرفة مكانه ، اشترى فيلا صغيرة على أطراف القاهرة وسيارة خاصة ، وأسس شركة تجارية لتواري ثروته الضخمة، يمكنك اعتباره غسيل أموال بشكل أو بآخر، واختار لمقرها ضاحية بعيدة عن قلب العاصمة ليزيد من إخفاء أثره وقد نجح في ذلك بحق.

كان عليه أن يجد سبيلاً يجعله معروفاً للجميع حتى يطلبوا خدماته ، وفي نفس الوقت عليه أن يُخفي شخصه القديم ، فجعل لنفسه كنية جديدة وخاصة ، صار معروفاً باسم نادر السلطان ، ويناديه الناس سلطان ، فلا أحد يعرف لقبه الحقيقي .. النجاتي.

التزم نادر بالانحطاط لقاع الرذيلة والقذارة لينال رضى سيده وشيطانه، احترف فعل الموبقات، تمرّس في انتهاك الحرمات بأنواعها، قرابينه تنوعت وتزايدت حتى في غير الموعد المنصوص عليه في العهد مع الشيطان، تخيل فقط أنه يستمتع بذبح طفل رضيع لم يكمل عامه الأول فوق ظهر هذه الدنيا فقط ليكتب بدمه طلسماً أو تعويذة، قرأ مجموعة من الكتب والمخطوطات التي ورثها عن عائلته، أصبح يجيد كتابة التعاويذ والطلاسم في أوقات بعينها طبقاً لدراسته لحركة النجوم والكواكب السبعة[3].

لم يعلن عن نفسه مباشرة كرجل له قدرات وكرامات ، بل سلك درباً مختلفاً عن من سبقه من أفراد عائلته ، اشترك في ناد اجتماعي ورياضي شهير ليكون على مقربة من علية القوم، فقد أصبح منهم الآن ، وظل محافظاً على لياقته البدنية بالممارسة المستمرة للرياضة ، ومن هذا النادي بدأ يغزل شباكه على الأعضاء ، الأعضاء المنتمين لطبقة خاصة ، كان أكثر ما يحنقه هو الطلبات التافهة التي يطلبها منه الأعضاء ، هذا يريد أن يفوز بصفقة ينافسه فيها من هم أكثر كفاءة منه ، وتلك تريد أن يصبح زوجها خاضعاً لكل رغباتها ولا يرفض لها طلباً ، وتلك التي تريد أن تتطلق صديقتها لقحد دفين في أعماقها، هل أسس مكتباً خاصاً ليستقبل فيه زبائنه من أجل تلك الطلبات ؟ ثمة شعور بداخله أنه أكبر من كل هذا ، وعليه أن يضرب ضربات قويةً تترك صدىً وبصمة.

احتاج لمهمة كبيرة تجعله في مكانةٍ لا ينافسه أحد فيها ، ظل ينتظر وينتظر فلم يأته ما يرنو إليه، طال انتظاره فقرر أن يصنع هو الحدث ، عليه أن يختار من سيكون ضحيته وما هي ضربته ، وسيخطط لذلك بتأن.

(3) الكواب السبعة هي عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى، زحل، الشمس والقمر.

اختار رجلاً من الذين تجاوزت ثروتهم الأصفار السبع ، رجل له تجارة ضخمة خارج البلاد ، ويكاد يقيم خارج مصر طول العام ، يعود لمصر فقط لمدة شهر أو أكثر في السنة خلال فصل الصيف ، وقد وقعت عيناه على الرجل وأسرته في أحد الأيام في ذلك النادي الرياضي ، كان اسمه حازم نصّار ، في الستين من عمره تقريباً ، رشيق القوام ، يزين رأسه شعر فضي مصفف بعناية ، ما أطار عقل نادر هو ابنته ، تلك الفتاة العشرينية المولودة في فرنسا ، إيفانا التي تربت وقضت عمرها في مدينة توتنهام الإنجليزية ، أول ما رآها كانت تتهادى بملابس السباحة خارجة من أماكن تبديل الملابس ومتجهة صوب والدها وأمها الفرنسية لتجلس معهما ، جسم من المرمر تفنن نحات في صنع ثناياه وتفاصيله ، شعر حالك كالليل يصل إلى كتفيها ، تجمعه خلف رأسها ببساطة ، جذبت أنظار كل الجالسين حول المسبح الكبير ، لكن سرعان ما عاد كل لما يشغله ، باستثناء شخص واحد، نادر ، تعلقت عيناه بها وهي تنهض وتلقي بنفسها في المسبح بمهارة ، سبحت لدقائق قبل أن تخرج من المسبح ، قطرات المياه التي انسابت عبر جسدها الممشوق أذابت عقل نادر ، وأشعلت كل النيران في أعماقه ، فقرر أن ينال منها بأي طريقة كانت.

لم يكن التعرف إليها مشكلة كبيرة ، بسرعة تعرف إلى والدها بحجة أنه كان يفكر في تعاون تجاري يجمع شركتيهما ، وقدم الدعوة له ولأسرته على العشاء ، كانت تلك اللحظة التي لامس فيه كفها وهو يصافحها مودعاً لحظة شديدة الخصوصية ، ففي تلك اللحظة عرف ما سيفعله لينالها.

طوال أسبوع كامل كان يلتقي نادر بحازم وأسرته ، ما يهمه هو إيفانا ، الفاتنة التي تذيب الجليد بأنفاسها العطرة ، كانت تتعامل

معه بتلقائية ، بصفته رجل أعمال يتعامل مع والدها ، لكنه شاب حسن المظهر وطيب المعشر ، كان دائماً ما يلقي الدعابات فتبتسم ، لكنها أبداً لم تنجذب إليه أو تفكر فيما هو أبعد من ذلك ، تعرف أن أيامها في مصر معدودة وستعود إلى حياتها المعتادة ، وإلى صديقها.

طار عقل نادر لمّا سمعها تحدث صديقها هذا عبر الهاتف بالمصادفة ، سمع المحادثة بينهما وفهم إن هذه العلاقة بلا حدود أو قيود تفصل بينهما ، قرر أن ينفذ خطته بسرعة ، بل فوراً.

في نفس الليلة اختفت إيفانا من منزلها ، المخيف أنها كانت تجالس والدتها ، التفتت الأم للحظة فلم تجد ابنتها الوحيدة أمامها ، طار عقلها وشغلته الأفكار ، لم تكن من تلك النوعية التي تؤمن بأي شيء ، فلم يتمكن عقلها المادي من فهم ما حدث ، حازم كاد يُجن حين علم بالأمر وكيفية حدوثه ، وفي لحظات امتلأت الفيلا برجال المباحث ، طبعاً شخصية كحازم نصّار لا ينتظر المهلة القانونية للإبلاغ عن حالة الاختفاء ، خاصة مع ما فيها من غموض.

وقبل انتصاف الليل كان هناك مجموعة من خمس أفراد يقيمون في الفيلا ، تخصصاتهم مختلفة ، كل التليفونات باتت مراقبة في انتظار مكالمة من المختطفين ، تم تركيب كاميرات مراقبة تكشف كل شبر بالمكان ، وأصبح الكل في انتظار مكالمة طلب الفدية أو ما شابه ، حقيقة الأمر كان رجال المباحث في حيرة كبيرة : كيف دخل المختطفون وخرجوا في لحظات ودون أن يشعر بهم الحرس أو الخدم ؟ والأهم كيف اختفت إيفانا من أمام والدتها في التفاتة عين؟

طال انتظار حازم وزوجته وعجز رجال البحث الجنائي عن الوصول لشيء ، منذ اليوم الأول وأشار أحد الحرس بأن في الأمر قوة غير طبيعية ، وربما يجب الاستعانة بشخص يمكنه التعامل مع مثل

هذه الظواهر، في البداية رفض حازم هذا المبدأ ، لكن مع مرور اليوم الثالث دون حدوث أي جديد بدأت الفكرة تلح على عقله ، لكنه لا يعرف كيف يصل إلى هؤلاء القوم ممن لهم القدرة على التعامل مع ما يخرج عن نطاق العقل.

في حالة كهذه لا يحتاج حازم ليصل إلى رجل يكشف غيب اختفاء ابنته ، لأن من اختطفها واحد منهم ، وسيصل هو إليه ، لكنها حرب الأعصاب ، ليكون للوقع صدى ، تلقى حازم اتصالاً من أحد أصدقائه يطمأن على الوضع بعدما انتشر الخبر بين أصدقائه في النادي ، وقدم له هذا الصديق نصيحة بتردد : فليجرب أن يشرك نادر سلطان في هذه المشكلة فهو رجل له قدرة على فعل الأعاجيب.

تعجب حازم مما سمع ، على ما يذكر كان الرجال المشتغلون بالدجل والشعوذة؛ هم رجال مستترون يرتدون جلباباً فضفاضاً وقلائد ملونة عجيبة ، هكذا تصورهم الأفلام القديمة ، أما نادر فرجل أعمال ناجح وشاب مثقف يتحدث الإنجليزية بطلاقة ، وطوال معرفته القصيرة به وجده شاباً عملياً جداً.

لم يطل تردده وعجبه طويلاً ، وقرر المحاولة ، فما المانع من المحاولة في ظرف كهذا؟! بعد محادثة هاتفية قصيرة هرع نادر إلى الفيلا وطلب من حازم ألا يخبر أحداً بحقيقة قدومه ، هو فقط جاء ليطمئن على صديقه وموقف ابنته.

جلس ثلاثتهم في حجرة الجلوس حيث اختفت إيفانا ، وأمها تصف ما حدث ، كانت رابطة الجأش لكن عقلها لا يمكنه استنباط أي نظريات أو حلول ، استمع نادر بإصغاء ودون مقاطعه ، وعلى وجهه ملامح التفهم والقلق والخوف ، كان يجب ان ينال جائزة الأوسكار كأفضل ممثل عن هذا المشهد.

قام نادر وظل يتحرك بعرض الحجرة جيئة وذهاب ، تعلقت عيون حازم به وهو يمنّي نفسه بأن يصل لحل ، وتعلقت به عيون الأم وهي لا تفهم فيما يفكر هذا الشاب، وما دوره في الأمر من الأساس!، ثم طلب من حازم ان يرافقه ليغادر . سارا معاً وخرجا إلى حديقة الفيلا متجهين إلى حيث تقبع سيارة نادر، وما إن فعلا حتى توقف، والتفت حوله أكثر من مرة، وكأنه يتأكد أن أحداً لا يراه ثم همس متسائلاً بحذر:

"هل تؤمن بالجن ؟"

قطب حازم حاجبيه وقال بدهشة:

"ماذا ؟!"

قال نادر في خفوت وكأنما يخشى أن يسمعه أحد:

"إيفانا تم اختطافها بواسطة جني. "

قال حازم معترضاً بنبرة حادة:

"أي قول هذا يا نادر ؟"

-"اخفض صوتك .. لا داع لجلب الانظار ؛فكما تعلم رجال الشرطة يروننا عبر كاميرات المراقبة ، ما قلته هو الحق ، إن شئت صدقتني وإن أبيت فهذا شأنك .. لكنني سأُعيد إيفانا ولن أسمح بضياعها."

حدق حازم في وجهه للحظة ثم قال:

"لا أفهم ما حدث ، ولمَ حدث؟! .. أخبرني فقط أين هي ومع من ، وكيف ستعيدها وما المطلوب مني؟!"

قال نادر وهو يحافظ على طريقته الهامسة:

"من خطف إيفانا هو واحد من الجن .. نطلق على هذه الحالة الجن العاشق و..."

قاطعة حازم بذهول وخوف:

"ماذا ؟ جن عاشق !"

أطرق نادر برأسه مُبْدياً بعض الأسى في مشهد تمثيلي بجدارة قبل أن يقول:

"للأسف هذا ما كان، فهي فاتنة تسحر الألباب، المهم أنني سأعيدها غداً مساءً .. فقط اجعل زوجتك تذهب لأي مكان وبأي عذر .. لا أريد أن يرى أحد ما سيحدث سواك، وسآتيك في تمام التاسعة"

ثم مد يده ليصافحه وهو يردف: "غداً مساءً ستكون إيفانا بيننا".

قالها وغادر من فوره ، تاركاً حازم في بحر من الأفكار تلاطمت أمواجه وتكسرت على شواطئ عقله ، تتخطفه الظنون ، يدور في دوامات لا تنتهي إلا بدوامات جديدة ، جن عاشق ، ما الذي أصابك يا إيفانا؟ ، ترى أيصدق نادر في ما قاله ويعيدها؟ ، أم أن كل ما قاله خرافة وأساطير ؟!

في اليوم التالي ومع دقات التاسعة كان نادر وحازم يقفان في حجرة إيفانا الخاصة ، حجرة صغيرة أنيقة كحجرة نوم مثالية لفتاة عشرينية بألوانها الوردية وأثاثها ، أطفأ نادر الإنارة وأحكم إغلاق باب الشرفة وأسدل ستاره ، كان الستار شفاف فلم يمنع ضوء القمر بشكل كامل.

نظر نادر بحزم في عيني حازم وقال: "مهما رأيت فلا تخف .. وتذكر أنني هنا معك فلن يضرك شيء."

شعر حازم بالرهبة وقال:

"لا أدري ما الذي ستفعله ، لكن رجال المباحث في الحجرة المجاورة لنا ، وكما تعلم المكان كله تحت أعينهم وربما ...."

قاطعه نادر بحزم وحسم: "لا تشغل بالك بهم."

لم يعطه نادر فرصه لقول شيء أخر، استدار ورفع ذراعيه بمحاذاة منكبيه ، أغمض عينيه ثم بدأ في تلاوة تعويذة بلغة غريبة بصوت جهوري وكررها ثلاث ، وما إن انتهت المرة الثالثة حتى ضربت الحجرة صيحة قوية ، وظهر إعصار صغير فوق الفراش ، إعصار من دخان خفيف ، فطار الغطاء باتجاه حازم الذي انحنى بسرعة وكأنه يتفادى قذيفة قاتلة ، اتسعت عيناه برعب حقيقي حين ارتفع صوت ضربات على الجدار من الحجرة المجاورة ، حجرة رجال البحث الجنائي والمراقبة ، كانوا يصرخون برعب واضح وكأن شياطين العالم تتنزه في حجرتهم ، كل هذا ونادر ثابت لا يتحرك ، بل بدأ في تلاوة تعويذة جديدة بنفس اللغة الغريبة وبلهجة تبدو آمره ، فجأة خرجت من السقف ومن الأرض مجموعة أفاعي ، لم تكن أفاعي عادية ، كانت أفاعي من نار، يتطاير الشرر من جسدها المهتز وهي تزحف باتجاه نادر ، وسقطت تلك التي تزحف على السقف لتنضم لمثيلاتها على الأرض وكلها تتجه صوب نادر الثابت والذي رفع صوته أكثر بما يقوله ، اشتعلت النار في أكثر من موضع بلا سبب ، الاركان ، خزانة الملابس ، باب الحجرة ، وفي الفراش ، نادر لا يتحرك رغم أن الأفاعي الزاحفة أصبحت على بعد سنتيمترات من قدميه ، فجأة فتح نادر عينيه فإذا هما كالدم القاني ، نظر صوب الأفاعي وصوب يده إليها فاشرأبت الأفاعي، وأطلقت فحيحاً مخيفاً قبل أن تبدأ نيرانها في الانطفاء رويداً رويداً حتى تلاشت ، وكذلك النيران التي اشتعلت وكأنها لم تكن ، وسكن كل شيء ، ثم سُمع صوت شهقة بشرية.

تحرك نادر وأضاء الحجرة فإذا بإفانا فوق الفراش في ملابس ممزقة وشعر مبعثر وجفني متورمين من كثرة البكاء ، أسرع حازم إليها واحتضنها بقوة ، كانت نائمة أو فاقدة للوعي ، ظل يقبلها على جبهتها

وعلى شعرها وقد تسربت دموعه دون إرادة منه ، قبل أن يلاحظ تمزق ملابسها فأراحها على الفراش وأسرع يحضر الغطاء ليغطيها والتفت صوب نادر المبتسم بجوار الباب وقال:"ما الذي حدث ؟!"

أومأ نادر برأسه بلا معنى ثم قال:

"عليك أن تصحبها وترجع إلى توتنهام ، حاول أن تعاونها على تخطي ما حدث لها ، ومع مرور الوقت ستنسى ما مر بها."

أطرق حازم وهمّ بقول شيء ما، لولا أن سمع طرقات على باب الحجرة ، قام من جوار إيفانا النائمة وفتح الباب بحذر فوجد أحد رجال الشرطة فخرج إليه كي لا يرى ابنته وأغلق الباب فتحرك نادر ووقف بجوارها عند الفراش ، ثم مال عليها ولثم شفتيها في قبلة طويلة ثم همس في أذنها : "سأفتقدك."

في الرواق خارج الحجرة وقف حازم مع ضابط المباحث الذي يتحدث بانفعال شديد:

"لا نفهم ما حدث ، منذ جاءك ضيفك وقد أصاب الكاميرات خلل ما ، بدأنا في محاولة إصلاحها فعادت لنا الكاميرات الخارجية وتلك التي في الطابق السفلي فقط ، أما كاميرات الغرف في هذا الطابق فكانت عصية ، فجأة انقطعت الكهرباء عنا وأُغلقت الأبواب ، وبدأت النيران تشتعل بشكل جنوني ، فأصاب بعضنا الفزع وحاولنا الخروج من الحجرة بلا أمل لكن ..."

قطع استرساله حين خرج نادر من حجرة إيفانا ، فصدمه وجود نادر هنا ، عاجله حازم بقوله : "أكمل .. ما الذي حدث؟"

نقل الضابط بصره بين حازم ونادر قبل أن يهز رأسه ويقول :

"توقف كل شيء ، انطفأت النيران وكأنها لم تكن .. حتى أنها لم تترك أي أثر خلفها ، عادت الإضاءة وانفتح الباب ببساطة لكن الكاميرات لا تعمل."

تبادل حازم ونادر نظرة خاصة قبل أن يربت الأول على كتف الضابط ويسير معه وتبعهم نادر ، قال حازم:

"تعال معي فلدي أخبار جيدة لك."

بالطبع لم يستطع أحد أن يرصد ما حدث ، فقد تعطلت الكاميرات كلها ولم تسجل أي شيء ، حتى دخول نادر الذي شاهدوه بأعينهم لم يظهر في التسجيل ، وكما اختفت إيفانا بغموض عادت بغموض أكثر ، عادت محطمة النفس بعدما تعرضت لاعتداء دائم طوال أيام ، لم تتبين أين كان ولا من يعتدي عليها، إذ كانت معصوبة العينين طوال الوقت ، رحلت عن مصر مع أسرتها بعد عودتها بأيام قليلة.

كما انتشر خبر اختفائها الغامض ، انتشر أيضا خبر عودتها بفضل نادر ، لم يكن حازم ليبوح بتفاصيل طريقة عودتها ، لكن من تلقوا الخبر نسجوا من خيالهم قصصا مختلفة ، لم يرفضها نادر أو يؤيدها ، فكلها كانت تصب في مصلحته ، وتضيف إليه القوة والهيبة التي سعى إليها.

# الفصل الثاني

# آية السيناوي

## (1)

أصبح نادر كما أراد ، تغيرت حياته كلية ، يشعر وكأنه ملك الدنيا وما فيها ، كنجوم الفن أصبح له جمهور عريض ، غير أن هذا الجمهور لا يعلن انتماءه في العلن ، أصبح اسم نادر سلطان هو في حد ذاته طلسم يفتح الأبواب المغلقة ، إن كنت ترتبط به بأي شكل وعلى أي درجة فأنت من أصحاب النفوذ .. على حسب درجة قربك منه.

نادر سلطان ، أو السلطان ، هو الحل الغامض للمشكلات الغير طبيعية ، لو صادفتك مشكلة ما وعجز القانون عن حلها ، وعجزت الطرق الغير قانونية عن حلها ، أو كنت تخشى التورط في أمر غير قانوني معقد ، السلطان هو الحل.

رؤوف المنشاوي، واحد من الفنانين الكبار تورط ابنه في قضية مخلة بالشرف ، وأصبح فريسة لعملية ابتزاز محكمة الأركان، لا يقدر على إبلاغ الشرطة حفاظاً على سمعته واسمه اللامع، أكثر الشركات الأمنية الخاصة فشلت في تتبع من يبتزوه، حتى أصبح التهديد صريحاً، بعد 24 ساعة فقط إما أن يرضخ لطلباتهم وإلا فسيجد الصور ومقاطع الفيديو التيتصور ابنه، وفعلته في كل الصحف والمواقع الإخبارية ولا سيما القنوات الفضائية.

ليس ثمة حل، لكن السلطان موجود، بعد زيارة عاجلة للمكتب الخاص بالسلطان ودفع الأتعاب كاملة مقدماً كما هو معتاد في الحالات الطارئة، استغرق الأمر ساعة واحدة. ساعة قضاها الرجل في ضيافة نادر في حجرة الانتظار، قبل أن يدخل عليه سعد مساعد السلطان ويقول:

"تفضل يا أستاذنا .. السلطان في انتظارك."

قام رؤوف وترك حجرة الانتظار الرحيبة ذات المقاعد حديثة الطراز من الاستانلس ستيل والجلد ذي اللون البني وشاشة التلفاز الجدارية الضخمة ليتبع سعد، خرج من حجرة الانتظار إلى الصالة حيث مكتب سعد، ثم دخل الرواق الذي يقبع في أوله مكتب نادر .. السلطان.

عند أول الرواق توقف سعد وأشار بيده للرجل بمعنى أن تقدم بمفردك، قبل أن يجلس هو خلف مكتبه ويطالع شاشة الحاسوب التي أمامه بلا اكتراث، تقدم رؤوف ودخل إلى الرواق ثم طرق باب المكتب ثلاث طرقات، فتح الباب ودلف إلى الداخل، قبل حوالي الساعة كان في هذه الحجرة نفسها، حجرة كبيرة واسعة، مكتب نادر ضخم ومليء بالنقوش، مصمم ببراعة لا ند لها، الكرسي الخاص بنادر من الخشب له ظهر عالي ومزدان بنقوش رائعة، وأمام المكتب مقعدين لهما نفس الهيئة لكنهما أقل في الحجم. مكتبة ضخمة تتراص الكتب في داخلها في زحام وضيق، لم يركز كثيراً لتفحص أي من عناوين هذه الكتب، هناك ستار من قطيفة سوداء يغطي عرض الحجرة بالكامل ويخفي ما يقبع خلفه تماماً، وكأنه يقسم الحجرة إلى قسمين.

السلطان يجلس خلف مكتبه في تؤده وثقة، لم ينهض لاستقبال الرجل ذائع الشهرة والذي يتلهف معظم الناس لمجرد رؤيته، فقط أشار له بيده بما يعني أن يجلس، أوصد الرجل الباب خلفه وجلس أمام نادر وهو يقول:

"هل من جديد يا سلطان؟"

ضرب نادر سطح مكتبه براحته، فأجفل الرجل وهو يقول بعصبية مزهوة:

"وهل سأستدعيك إن لم يكن هناك جديد؟! اسمع يا أستاذنا .. عندما يقول السلطان بأنه سيفعل أمر اً ما فإن كلامه قدر محتوم.. هل فهمت؟"

ازدرد رؤوف بصعوبة، لم يُعامل بهذه الطريقة طيلة حياته، فلم يُجب وإنما اكتفى بالإيماء موافقاً، موقفه المخزي لا يسمح له بالاعتراض على طريقة السلطان المتعالية في التعامل معه، تناول نادر مظروفاً أبيض من أحد الأدراج وألقاه على المكتب أمام رؤوف الذي تناول الملف وفتحه بلهفة وفض محتوياته، فوجد ذاكرة إلكترونية والكثير من الصور، طالع أول صورتين قبل أن يشيح بنظره ممتعضاً بعيداً عن الصور، أعاد كل شيء إلى المظروف وقد تهللت أساريره، فرفع نظره صوب نادر وقال:

"إن ما يقال عنك لهو أقل بكثير مما تستحقه .. لقد أنقذتني من تدمير سمعتي وتاريخي"

قال نادر بعدم اكتراث:

"عليك أن تراقب أفعال ابنك .. أنت شخصية عامة ويجب أن يفهم هذا."

أومأ الرجل برأسه موافقاً وسأله:

"هل ستخبرني بمن فعلها؟"

ابتسم نادر بخبث وقال:

"ليس عليك أن تقلق بشأنهم أبداً .. فقد انتهى أمرهم."

ثم مال قليلاً للأمام وهو يقول:

"ربما عليك أن تسأل عن من دفع لهؤلاء ليراقبوا ابنك ويرصدوا فعلته .. بالمناسبة هم من دفع الفتاة في طريق ابنك الذي لا يكبح شهوته."

قطب الرجل حاجبيه، وقد بدى كلام نادر أكثر منطقية ، فسأله:

"ومن هو ذا الذي يقف خلف كل ما حدث؟"

تراجع نادر مرة أخرى في مقعده وقال:

"زوج ابنتك .. الصحفي اللامع."

اتسعت عينا الرجل في دهشة ممزوجة بالصدمة وهو يقول في حيرة:

"غير معقول .. كيف يجرؤ على أمر كهذا؟ ولماذا؟"

ابتسم نادر مجدداً بدهاء وضاقت عيناه قليلاً وهو يقول:

"اذهب وسله عن الفيلا الصغيرة التي ابتاعها سراً في ساحل البحر الأحمر، وعجزه عن تسديد باقي ثمنها، سله عن السيارة التي اشتراها ولم يسدد أقساطها كذلك."

هز الرجل رأسه بعدم تصديق وقال :

"هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن مديونياته هذه .. ابنتي لم تخبرني أبداً .. ولم أر سيارته الجديدة تلك يوماً، إن كان يمر بضائقة مالية فلِمَ لم يطلب مساعدتي بدلاً من سرقة أموالي ؟"

اتسعت ابتسامة نادر وهو يقول :

"وهل كنت ستدفع له هذه الديون ليستمتع مع تلك العاهرة التي يهواها؟!"

هتف الرجل في غضب:

"أي قول هذا ؟ .. لا يمكن أن يفعل هذا بابنتي ؟ .. أنت لا ....."

قاطعه نادر وهو ينظر له نظرة جمدت دماءه في عروقها وقال بلهجة حادة:

"لو كذّبت ما أقوله مرة أخرى فلن أرحمك .. السلطان كلامه لا ريب فيه .. احذر وأنت في حضرة السلطان .. هل فهمت؟!"

ارتعشت أطراف رؤوف من نظرة نادر وطريقته في الكلام، وبدأ يجول بنظره في غير هدى، ثم أطرق قليلاً مفكراً، قبل أن يرفع عينيه إلى نادر ويقول بلهجة منكسرة:

"لم أقصد أي إساءة أيها السلطان .. لكن سأحتاج مساعدتك في هذه المشكلة الجديدة...!"

هز نادر رأسه نافياً وقال:

"السلطان لا يعبث .. أي تحري خاص تافه يمكنه تعقب زوج ابنتك ورصد ما ذكرته لك، وعندها أفعل به ما يحلو لك..."

ثم أشار بيده نحو الباب وقال :

"تشرفت بلقاء يا أستاذنا."

## (2)

آية هو اسمها، آية رجب السيناوي، شابة في منتصف العقد الثالث من عمرها، أي أنها في الخامسة والعشرين من العمر ، بنت واحد من رجال المال الكبار ، سليل عائلة أصلها من سيناء ومنها استمدت العائلة لقبها ، عائلة تشتغل بالزراعة وتجارة المحاصيل المختلفة ، يعملون في تجارة الأقمشة ولهم فروع في محافظات كثيرة ، بعض أفراد العائلة يتاجر في المصوغات الذهبية ، غير أن التجارة الأهم التي تعمل بها العائلة هي تجارة الآثار، طبعاً بشكل غير معلن.

رجب اختار لنفسه تجارة المعدن الأصفر النفيس، له ثلاثة فروع في القاهرة وحدها، علاقته بتجارة الآثار ليست وطيدة، فالتجارة الخفية تتم برعاية الأخ الأكبر لرجب .. علي السيناوي، كبير العائلة المقيم في الإسكندرية، لا يزال رجب يحمل بعض الموروثات المكتسبة من طبيعة عرب سيناء.

دعنا نعود إلى آية، فتاة لها من اسمها نصيب، فهي آية في الحسن، ملامحها مصرية أصيلة، ستقابلها حتماً مرات ومرات في أوجه ملكات مصر القديمة المنحوتة بمهارة في المعابد الخالدة والمتاحف المختلفة، عيناها واسعتان صافيتان بلون الحناء الكثيفة، حاجبان مرسومان بإتقان، شفتان ينتجان العسل بلا نحل ولا منحل، شلال منساب من ليل أسود ناعم شعر طويل يصل إلى منتصف ظهرها، سبحان البارئ

أحسن خلقها وتصويرها فكانت آية، تخرجت من كلية التجارة، لم يكن مهماً مسارها في التعليم، هي وشقيقتها منال تخرجتا من الكلية ذاتها، المهم أنها أكملت تعليمها الجامعي، ونالت شهادة ليكتمل المظهر الاجتماعي، في النهاية ستذهب لبيت رجل ما كما ذهبت أختها الكبرى.

طبيعتها وعقلية والديها وأسلوب التربية التي نشأت عليه كلها أسباب جعلتها لا تظهر كثيراً، حتى خلال فترة الدراسة فهي بالكاد تذهب للجامعة، ظهورها في مناسبات محدودة وفي حضور الأهل جعلها كالحلم في خيال من تاقت أنفسهم لها، وهم كثر بالمناسبة، ما بين من هام بها لجمالها، وبين من طمع في مال أبيها وثروته دارت الأفكار والخواطر غير مرة، لكن كل تلك الأحلام تحطمت على صخور الواقع كل مرة، لا سيما وأنها لم تكترث يوماً بالعلاقات العاطفية.

ربما هى فتاة من خمسينات القرن الماضي في عقليتها وأسلوبها، بطبعها متحفظة، لم تنخرط كبنات جيلها في ثورة التكنولوجيا الرهيبة، تصلح لتكون فتاة ريفية تقليدية قبل ستين أو سبعين عاماً مضت، هكذا هي .. آية.

قال كاتب شاب في وصف الحب ذات مرة؛ أنه تلك المصادفة القدرية التى تأتيك دون انتظار، لقاء قد يدوم لحظات فقط، لكنك ستقع في الآسر بقية حياتك، ولعله صادق فيما روى فتلك المصادفة كانت كينبوع تفجر منه نهر من ماء عذب بارد يخترق صخور جحيم نادر سلطان المستعرة.

عيد ميلاد مروان بن منال التي تزوجت من خارج أسوار عائلة السيناوي، زوجها الذي يعمل في وزارة الخارجية قرر الاحتفال بعيد ميلاد ابنه في حفل عائلي صغير في النادي لضيق وقته واضطراره للسفر العاجل.

قبيل المغرب،التفت الأسرة والكثير من الأطفال اللذين يرتدون أزياء مرحة ما بين ملابس لشخصيات كرتونية أو أقنعة وقبعات كرتونية مختلفة الأشكال، التف الكل حول طاولة مستديرة تظللها مظلة خشبية كبيرة لها نفس نسق مثيلاتها المنتشرات في الحديقة الرحبة، يتخاطف الأطفال الحلوى في مرح وبراءة، في ركن الحديقة مسرح صغير يقف فوقه مطرب شاب يشدو بما يدخل السرور في النفوس الطاهرة التي لم تتحمل أعباءً أو أحقاد وأخطاء الحياة بعد.

على مقربة يجلس نادر يحتسي قهوته يتابع الحفل البسيط الذي لا يظهر حقيقة ثراء أصحابه، عيناه تتعلق تارة بفتاة شقراء تحاول أن تقلد رقصة شهيرة على أنغام ما يغنيه المطرب الشاب، ثم يجذب انتباهه تارة أخرى طفل يجرى ويصب الماء على صديقه من لعبة بلاستيكية في يده، متابعة الأطفال في مرحها ولهوها مشهد يدخل سروراً عجيباً على النفس البشرية، النفس الطبيعية، وليس النفس التي تبدع في تدمير ذاتها كنفسه هو.

رآها تقترب من أصحاب الحفل، تسير مع سيدة في منتصف العقد الخامس تقريباً، سيدة تدل هيئتها على أنها أمٌّ مصرية بامتياز، لكنها أمٌّ من فئة معينة في طبقة اجتماعية خاصة، ملابس ذات ألوان زاهية ويزين صدرها عقد ذهبي، متدلٍ، ثقيل، ثمنه وحده يكفي لمساعدة شاب فقير على تأسيس بيت وأسرة، لعلك تستنتج ما تنوء به ذراعيها من أسوار صيغت من المعدن النفيس تغرد بأنشودة من رنين كلما تحرك ذراعيها أثناء سيرها.

المهم أنه رأى آية تخطو بجوار والدتها صوب طاولة أصحاب الحفل، وكأن المشهد تحول في غمضة عين إلى الحركة البطيئة، تسير خاشعة في ملابس بسيطة لكنها تحمل ذوقاً أفضل بكثير من والدتها،

تداعب النسمات الخفيفة شلال الليل المنساب وراء كتفيها، فتثور بعض الشعيرات الحريرية وتخرج عن مسارها قبل أن تعود لمكانها مع مرور النسمة العابرة، رغم أن الشمس لم تغب بعد إلا أن ضوء وجهها يكفي ليضيء سماء هذه الليلة إذا ما اعتذر القمر عن أداء عمله اليومي لأي ظرف طارئ.

تعلقت عيناه بالفتاة وقررت عصيان قواعد صارمة فرضها عقله بعدم إظهار الإعجاب أو الانجذاب لشيء مهما كان، عصت عيناه ما لديها من أوامر وقررت ألا تفوت لحظة لا ترتوي فيها من هذا النهر العذب، بل قررت أن تستحم في مياهه الباردة وتغمر نفسها بهذا السحر الفتان، ومع غرق العينين في هذا اليم، استسلم العقل وتغاضى عن عناده، وتجرع جمالاً للمرة الأولى بلا شوائب ولا رغبة حيوانية.

انضمت آية للمحتفلين، وتضاعف جمالها وأشرقت لما اعتلاها الحبور بمشاعر حقيقية غير مصطنعة، ما أجملها من خالة، المشكلة التي قوضت عقل نادر أنها لم تفارق أسرتها للحظة فيتمكن من لقاءها بشكل منفرد.

غابت الشمس، وتسللت ستائر الظلام خفية لتغير لون السماء، وهدأ الصخب وبدأ بعض المحتفلين يهمون بالانصراف، انتبه نادر الآن لنفسه، انتبه إلى أنه ظل حبيس مراقبتها لما يقرب من ساعة كاملة، وها هو الحفل ينفض ببساطة كما كان، على الفور انتزع بعض المعلومات من عامل البوفيه الملحق بالحديقة عن سبب هذا الحفل وأصحابه، فهب من مكانه يسرع الخطى صوب طاولتهم، قدم نفسه إلى رجب وعائلته واعتذر عن عدم إحضار هدية لمروان، لم يكن اقتحامه لعالمهم الخاص مرحباً به، ولم يدم اللقاء سوى بضعة دقائق، شعر

برغبتهم في انهاء اللقاء من فتور الحديث، فأصابه الحرج والضيق بعدما كاد ينسى أن ثمة شعوراً يدعى الحرج، فاعتذر وغادرهم عائداً لموقعه الأول، وفي بحر دقائق غادروا المكان برمته.

لم يكن هذا اليوم ليمر على نادر ببساطة، فلأول مرة منذ سنوات طوال يشعر بالحرج، ويشعر بأن هيبته وهيلمانه لا قيمة لهما، وهو أمر ليس بالهين أبداً.

## (3)

سعى نادر للحصول على معلومات عن آية من العاملين في النادي ذلك اليوم، لقد أفقدته صوابه لدرجة ما، فهو ما كان يحتاج إلا لتوجيه واحد من خدمه ليأتيه بأخبارها، لكنه لم ينتظر أو يصبر، ولم يجد ضالته أيضاً.

أصابه الحنق لقلة المعلومات بشأنها، العمال يعرفون والدها ومركزه جيداً، لكن لا أحد منهم يعرف عنها ما يفيد، لم كل هذا الغموض؟ تملكه شعور بالضيق وغلبه هذا الشعور لبرهة، قبل أن يسترد رشاد عقله ويتذكر ما الذي عليه أن يفعله، فانصرف مغادراً ليعود لمنزله ويطلق خدمه ليجلبوا ما عجز عن جلبه بنفسه من أخبار.

داخل فيلّته وبالتحديد في غرفة نومه، تمدد فوق فراشه وقد تشابكت أصابع كفيه أسفل رأسه على الوسادة وهو يحدق في السقف، مكتفياً بضوء القمر المتسلل عبر باب الشرفة المفتوح بعدما انتصف الليل بساعة أو يزيد، لقد أتاه خادمه بما يستطيع من أخبار، وهي ليست بالكثيرة، وليست ما كان ينتظره بالتأكيد.

اسمها آية، عرف أسرار والدها، طبيعة عمل عائلتها السري، لكن لا شيء عنها، لها صديقة واحدة مقربة منها هي ابنة خالها، لا تغادر بيتها إلا لماماً، رغم قلة ما عرفه إلا أنه تولد بداخله شعوراً بالراحة،

هي فتاة ليست كأي فتاة في هذا الزمن، فتاة تذكره بفتيات بداية القرن الماضي، ربما تكون تقليدية بدرجة مبالغ فيها غير أن لها سحراً خاصاً لم يتمكن من مقاومته، تجادل مع أفكاره ونفسه في حوار لا صوت له.

تجاوز عامه الأربعين، لم ينتبه لهذا من قبل، لم يكن بحاجة ليتذكر عدد أيام أو سنوات حياته فطالما هي مليئة بالسطوة والقوة فلا فائدة من إحصائها، لم يرتد ثوب الراهب الزاهد في النساء يوماً، بل أنه نال ما اشتهاه من أي امرأة أو فتاة، سواء برضاها أو بطريقته التي لا تقدر أي بشرية على الفرار منها، تسللت ابتسامة ثقة إلى شفتيه وهو يتذكر أنه حصل على استثناء خاص في عهده مع ناصورى، استثناء يمنح حق الزواج وإنجاب الأبناء، صحيح أن هذا الأخير اشترط ألا تتم الزيجة إلا بموافقته، لكن لم سيرفض أن يتزوج آية، قطب حاجبيه فجأة عندما وصل بتفكيره إلى هذه النقطة، هل حقاً يرغب في الزواج من هذه الفتاة؟ وجد نفسه تصرخ مجيبة بالموافقة على سؤاله وتخيل أنها تؤنبه لأنه سأل سؤال كهذا، تمهلي يا نفس فهي فتاة غامضة مجهولة حتى الآن، ولا يمكن أن نخاطر بوجود شخص مجهول بيننا دون أن نتأكد من ولاءه، تحدثه نفسه بأنها نعم الفتاة وأنها نوع لم يعد متوفراً هذه الأيام وستعكف في داره لرعايته كما اعتادت أن تمكث في دار أبيها، لكن يا نفس ما نقوم به أبداً لن تهضمه بسهولة وربما رفضتني، تشجعه نفسه بأن هذا الأمر سابق لأوانه وعندما يتقاربان ستتضح كل هذه الأمور وتتجلى كل الأجوبة، علينا أن نتمهل يا نفس ولا ننجرف بقوة هكذا ونبحث عن طريقة ما للتقرب منها، حتى لو كان بطرقنا الخاصة .. الخاصة جداً.

ألقت نفسه على عقله هذا السؤال المباغت: وهل ستخبر ناصورى برغبتك الآن؟ تفاجأ من السؤال وكأن أستاذاً أما طرحه عليه وهو بعد طالب يتلقى تعليمه الأساسي، وليس أن نفسه هي من تحاوره، فاضطرب للحظات وهو يفكر بجد، ترى أيخبر ناصورى ليستأذن في

طلب الزواج أم أن للمقال مقاماً لم يحل أوانه بعد؟ حقيقة الأمر أن عقله لم يتردد في حسم الجواب على هذا السؤال، عليه التريث والعمل على التقرب من آية قبل أن يتخذ قراره النهائي بالزواج منها.

## (4)

حيلة بسيطة –بالنسبة لنادر طبعاً- لجأ إليها ليتمكن من مقابلة آية، أرسل أحد زبانيته ليوسوس في أذنيها بضرورة النزول لشراء بعض الأشياء من مكان بعينه، واحد من تلك المحال الكبيرة التي يمكنك أن تتبضع منها مختلف أنواع الأطعمة والفواكه ، اللحوم والأسماك ، مستلزمات البيت والأجهزة الكهربية المتنوعة، اختار نادر هذا المكان تحديداً لأنه يقع على بعد أمتار من منزلها، فيكون من المنطقي أن تنزل بمفردها دون صحبة والدتها كما هي العادة، وقد كان.

بينما تقف هي تنتقي بعض مستحضرات التجميل المتراصة بعناية فوق الرفوف، تقدم نادر منها مصطنعاً مصادفة سخيفة كتلك التي لا تحدث إلا في الأفلام والمسلسلات، رسم على ملامحه إمارات المفاجأة والسرور وهو يقترب منها قائلاً:

"آنسة آية!  يا لها من مصادفة!!"

التفتت نحوه وعلى وجهها التعجب بادياً وقالت متسائلة في حيرة:

"هل تخاطبني أنا؟ .. من أين لك أن تعرفني؟"

أجاب بسرعة:

"أنا نادر .. لقد التقينا قبل يومين تحديداً في عيد ميلاد مروان بالنادي"

قطبت حاجبيها الرفيعين للحظة ثم قالت دون أن تلين ملامحها:

"تشرفنا .. عذراً لأني لم أتذكر ... أقصد لم أتبينك .. هل لي بمساعدتك في شيء؟"

ارتبك لطريقتها الجافة، حافظ على ابتسامته وهو يقول:

"لقد لمحتك وأنا أمر هنا ففكرت أن ألقي عليك التحية وأرى إن كنت بحاجة إلى شيء أو..."

قاطعته بغتة:

"شكراً .. كنت أهمُّ بالانصراف .. فرصة سعيدة"

قالتها واستدارت مغادرة، لم يتوقع نادر أن تعامله بهذا الجفاء المطلق، تابعها بعينه وهي تندفع مغادرة المكان، خرج بدوره وتابعها بنظره حتى خرجت من منطقة انتظار السيارات واختفت عن ناظريه، فتحرك وسار حتى وصل سيارته فاستقلها وانطلق مبتعداً.

انطلق بسيارته يشق الطرقات شقاً، حاورته نفسه من جديد لتحاول أن تقنع عقله بأن عليه الظفر بفتاة كهذه، فمن سواها تصلح زوجة له بعقلية وتربية كتلك، لو كانت أي فتاة أخرى لكان ما دار بينهما ليختلف تماماً، وربما كانت تجلس بجواره الآن في السيارة وهما في طريقهما لتناول طعام الغداء مثلاً، تلك هي الفتاة التي تصن زوجها في غيابه كما في حضوره ولا تفشي سره، هذا هو المهم .. لا تفشي سره.

مالت النفس، وإن مالت فلا سبيل للعقل في ردها أو إصلاح ميلها، فتراجع صوت عقله وبدأ يصغي لنفسه التي صادف حديثها هوى في قلبه ، قلب تجبر وتكبر، بل أوشك أن يتحجر، قبل أن تقتحم آية عالمه فينبض ذاك القلب بشيء من الحياة، نبض ضعيف يخشى أن

ينكشف أمره، وهو في الحقيقة لن يدم طويلاً وسرعان ما يعود السلطان لجبروته وقسوته.

اضطر نادر لينتظر حتى منتصف الليل، داخل حجرة مكتبه الخاص بعدما صرف سيد مساعده وأغلق المكتب جيداً من الداخل، خلف الستار الذي يقسم الحجرة وقف وهو يلقي تعويذة خاصة بلغة غريبة، يضع بخوراً خاصاً فوق جمر مشتعل فتتصاعد منه خيوط دخان زرقاء تتراقص كالأفاعي على نغمات عازف الناي.

"أنا يواك لمز رامع دلاخ"

كرر تعويذته أكثر من مرة بصوت ثابت رغم أن الدخان الأزرق تزايد وتكاثف بشكل غريب، ارتفعت حرارة المكان وبدأت حبات العرق تنبت في صحراء جلد نادر الذي لم يتوقف عن تكرار التعويذة أو حرق المزيد من البخور.

بدأ الهواء يهتز ويضطرب، ثمة شيء ما يتكون في الفراغ، جسد بشري متمايه الألوان وإن غلبه السواد، استغرق الأمر لحظات حتى اتضح ذلك الجسد، رجل ناضج حاد الملامح يرتدي ملابس سوداء بالكامل، ما يميزه –غير كونه ظهر من العدم- هو أن عينيه حمراء بالكامل لا بياض فيهما، مقلتاه من لهيب متراقص، هل تذكر تلك الهيئة؟ أحسنت .. هو ناصورى.

"مرحبا يا ابن النجاتي"

قالها ناصورى المتجسد في هيئته البشرية.

"مرحباً بالعظيم ناصورى"

"فيم تطلبني؟"

**تردد نادر للحظة، كفكف عرقه قبل أن يقول:**

**"أطلب الإذن للزواج"**

**"زواج؟!"**

**قالها ناصورى بحدة مستنكراً، فقال نادر:**

**"لا تنس أنك أعطيتني ميزة الزواج يوم تعاهدنا"**

**خُيل لنادر أن عينيّ ناصورى الناريتين تشعان غضباً حين قال بغضب واضح:**

**"ناصورى لا ينسى"**

**قال نادر بسرعة محاولاً عدم البدء في مشكلة جانبية:**

**"لم أقصد هذا أبداً، ناصورى لا ينسى ولا يخطئ"**

**"تريد الزواج .. ولم؟ ألا يكفيك ما تفعله بالنساء بدون زواج؟"**

**هز نادر رأسه وقال:**

**"ليس الزواج لهذا السبب يا سيدي، لقد تقدم بي العمر، رأيت أن الوقت مناسباً للزواج وإنجاب وريث يرث عهدنا"**

**ببطء يدمر الأعصاب دار ناصورى حول نادر دورة كاملة دون أن يبعد عينيه الناريتين عنه للحظة، ثم توقف أمامه مباشرة وسأله محدقا في عينيه:**

**"ومن هي تلك العروس المختارة؟"**

**صمت نادر للحظات، فكر أن ناصورى يعلم من تكون، بالتأكيد علم بأمر الجني الذي كلفه بالوسوسة لآية، فهكذا تجري الأمور، لنادر ما يطلب لكن الجن يخبر شيصبان أولاً.**

"اسمها آية .. آية بنت رجب السيناوي"

صمت ناصورى وتجمد المشهد تماماً، إلا من حركة صدر نادر الضعيفة صعوداً وهبوطاً مع أنفاسه الخافتة، حتى لتظن أن ناصورى تحول إلى تمثال من الرخام المنحوت بحرفية عالية، واستمر الجمود لدقيقتين كاملتين غرق فيهما نادر عرقاً ولم يقو على مسح عرقه.

تكلم ناصورى فجأة وبحدة جعلت نادر يجفل، تكلم بكلمة واحدة فقط:

"كلا"

اتسعت عيني نادر غير مصدق:

"كلا؟! .. ولماذا ترفض طلبي؟"

لم تتغير الملامح الرخامية لناصورى المتجسد وهو يقول:

"لم أرفض طلبك .. رفضت اختيارك"

ارتبك نادر وحرك رأسه ملتفتاً يميناً ويساراً بغير هدى، ينظر في لا شيء محدد، تغلب عليه الدهشة والصدمة معاً، لماذا يرفض ناصورى آية تحديداً؟، قطع أفكاره صوت ناصورى الذي بدى وكأنه يقرأ أفكاره:

"هذه الفتاة مرفوضة لما يفعله أهلها"

قطب نادر حاجبيه صرخت الأسئلة والحيرة من ملامحه وهو يقول:

"أتقصد عملهم بالآثار والمومياوات؟"

لم تتغير ملامح ناصورى وهو يقول:

"ليس الأمر بهذه البساطة أيها النجاتي .. أهلها يتعاونون مع قبيلة معادية لقبيلتي"

تجلت الدهشة على نادر وهو يسأله:

"هل يتعاونون مع الجان أيضاً؟"

"ليس بشكل مباشر .. هم يظنون ظن العامة في وجود حراس من الجن على مقابر قدماء المصريين[4]، لذا استعانوا برجل يتعاون من ألد أعدائي، ارتباطك بهذه الفتاة فيه هلاكك وسيجلب عليّ مشاكل لا أسعى إليها"

نادر: "لكن يا سيدي ...."

قاطعه ناصورى:

"ليس هذه الفتاة يا ابن النجاتي .. طلبك مرفوض"

عاد الهواء يهتز ويضطرب مع تلاشي ناصورى من المشهد وانصرافه، تاركاً نادر خلفه غارقاً في عرقه وحيرته وحزنه.

---

([4]) ثمة اعتقاد خاطئ بأن مقابر قدماء المصريين يحميها طلاسم تحكم عدد من الجان للدفاع عن مقتنيات وجسد صاحب المقبرة، يلجئ بعض الأفراد ممن ينقبون عن الآثار بشكل سري للمشايخ أو الدجالين بحجة فك الطلاسم في حين أنهم يتعرضون للاحتيال بهذه الخدعة، وبالطبع لو كانت الطلاسم حقيقية لما تم اكتشاف أي مقبرة ولا ما حدثت السرقات المتوالية عبر التاريخ.

# الفصل الثالث

# الرجل .. بداية المشكلة

## (1)

أسبوع كامل مر على نادر بعد اللقاء الذي جمعه بناصورى ورفض هذا الأخير لطلبه الزواج من آية، في البداية لم يستسغ الأمر أو يفهمه، علاقة أهلها برجل يتعاون مع قبيلة تعادي قبيلة ناصورى.

من هذا الرجل؟

لم يخشاه ناصورى؟

ثم ما هذه المصادفة العجيبة؟ عندما يعجب بفتاة ويسعى للزواج منها يجدها بشكل أو بأخر تشكل تهديد على ناصورى وقبيلته!

ظل يفكر في حل فلا يهتدي لشيء، فكرة أن ينصرف عن آية لا يمكنه تخيلها بطريقة جعلته يلوم نفسه مراراً، هي مجرد فتاة التقاها صدفة ولم يدر بينهما سوى حوار مقتضب قصير، حوار في حد ذاته كافياً لوأد هذه العلاقة التي لم تبدأ أبداً، لكنه نادر النجاتي، السلطان، لا يستسلم بسهولة، لم يكن ليضعف أمام فتاة مهما كانت، ربما وجد في آية فتاة تناسبه وتصلح لتكون في الواجهة بجواره، لكن لو وصل الأمر بقلبه إلى أن يعصيه ويهوى فسيعتصر قلبه بقبضة باردة بلا تردد، يا لها من ورطة تلك التي وجد نفسه فيها، لم يترك يوماً شيئاً أراده، وفي نفس الوقت لا يريد الدخول في صراع مع ناصورى، أما آية

فربما يفتك بها قريباً ليشبع رغبته في الشعورة بالقوة، المهم الآن هو أمر ذلك الرجل الغامض.

كلّف مساعده الشخصي ابن طمياش بتقصي أمر ذلك الرجل الذي وقف عائقاً بينه وبين إتمام الزيجة، بعدما أخذ عليه عهداً بألا يخبر ناصورى بهذه التحريات، وغاب ابن طمياش، غاب لأيام كاد هو أن يفقد عقله فيها، ألهذه الدرجة هذا الرجل صعب المنال؟

في نهاية الأسبوع عاد ابن طمياش بالأخبار، ضمه ونادر الجزء المتواري خلف الستار في المكتب الخاص، متجسداً في هيئة بشرية لرجل متوسط الطول يرتدي حُلة سوداء لكنه عكس ناصورى يبدو بشرياً بامتياز، عاتبه نادر كثيراً على التأخير ثم تركه يسترسل في سرد ما لديه:

"لقد كان الأمر عسيراً بعض الشيء وكنت أخشى أن يصل الأمر لسيدي ناصورى فتوخيت الحذر في كل ما فعلت، عكفت أفكر في مسار أسلكه في بحثي، اقتربت من منزل رجب وراقبته ليوم كامل، ثم أخضعت عُمّار بيته لقوتي واستجوبتهم، لا يملكون أي معلومة مفيدة، فما كان مني إلا أن استجوبت قرينه شخصياً، ما وجدته ليس ما توقعته أنت، رجب لا تربطه صلة مباشرة بالرجل المنشود، وإنما هذا الرجل على علاقة قوية بالأخ الأكبر في عائلة السيناوي، هذا الأخ يلقبونه يدعى مختار."

صمت وكأنه انتهى مما لديه، فعنفه نادر قائلاً بغضب:

"ليس هذا ما أرسلتك تقتفيه .. قل ماذا جمعت عن ذلك الرجل اللعين؟"

أطرق ابن طمياش برأسه، يبدو أن طول عشرته لأحفاد النجاتي على مر السنين أكسبته بعض العادات البشرية، رفع رأسه ونظر مباشرة في عيني نادر وقال:

"اسمه مهدي .. الشيخ مهدي علام، ويقيم هناك في الإسكندرية هو الأخر، وهو رجل قوي .. قوي بحق .. وبيننا وبينه حدود وحواجز"

فجأة، تخلخل الهواء واهتزت الأرضية، اضطرب نادر فهذا يعني أن هناك قادماً من بُعد مغاير، أما ابن طمياش فقد وقف منتصباً ثابتاً وكأنه يقف على أرضية ثابتة غير تلك التي ترتجف، تكون دخان في مواجهتهما وارتفعت درجة الحرارة كثيراً هذه المرة، شعر نادر برهبة تثقل أنفاسه، هل القادم إليه الآن هو ناصورى؟

هل عرف بمسألة تحريه عن ذلك الرجل مهدي علام؟ لو فعل فيبدو أنه سيلاقي الويلات قريباً، وعادت له ذكرى رأس عمه عارف وهي تطير بضربة واحدة من شيصبان.

دائماً ما تغنى بأنه لا يهاب شيئاً أبداً، منذ نعومة أظفاره وحتى قبل عهد الدم وهو رابط الجأش لا يتردد، من الصعب أن يجد الخوف لقلبه سبيلاً، ولكم تغنى قائلاً:

كمْ سَلَكَ الخوفُ لِلنَّفْسِ دَرْباً مُعَبَّداً... ما وَطَأَ دَربي وضَلَّ عنْ عنواني.

وهُو الثَقِيلُ عَلى الروحِ يجِثِمُ مُهلِكًا ... عندي كريشَـةٍ أنفُثها لا تَثْقُل بميزانِ.

حينَ الْتَقَيتَهُ في الهيجاءِ سيّفتُهُ مُشتَاقاً .. فَفَر مُوليّاً يُقْسِمُ لا يُقَارِعني بمَيدَانِ.

أنا الذي يُهْرَق الدَمَ أنهَارَ بإشَارَتي ... وبإشَارَتي خَضَعْتْ مُلُوكَ الإنسِ والجانِ.

الآن وقد تزعزعت شجاعته وطرق الخوف باب نفسه، ورغم أن نفسه لم تستجب للطارق بعد إلا أنها انزعجت من الطرق.

ملأ الدخان أرجاء الحجرة، أصبحت الرؤية غير ممكنة، سعل نادر عدة مرات ليس بسبب الدخان الكثيف، ولكن بعدما بدأ يشعر بقرب أجله وبات يتخيل رأسه وهي تنبت في شجرة القرابين على أحد الفروع كما نبتت من قبل رأس عمه.

استمر الوضع كما هو لدقيقة أو يزيد قبل أن تسكن الأرضية تماماً، بدأ الدخان ينقشع رويداً رويداً، ومع هذه الأجواء زادت رهبة نادر، هو يعرف أنه أقدم على معصية سيده ناصورى، ويمكنه أن يتخيل نوع العقاب الذي سينزل به، إن من أصعب اللحظات على الإنسان اللحظة الأولى له في مواجهة أبشع مخاوفه، تسارعت ضربات قلبه وارتفع قرعها كإيقاع موسيقى الفرق العسكرية، غمره عرق كثيف جعل قميصه يلتصق بجسمه وكأنما يقف تحت مطر منهمر، يشعر كشاةٍ ترقُب دخول الجزار وفي يمينه سكين حاد لينحر رقبتها.

تبدد الدخان بدرجة كبيرة، أصبح بإمكانه الرؤية الآن وبشكل جيد، فاتسعت عيناه في دهشة ممزوجة بخوف وقلق، ابن طمياش ليس له أي آثر أمامه، بدأ يلهث وقد ملأه توجس كبير، ترى ما الذي حدث؟

قطع أفكاره صوت يعرفه جيداً يأتي من خلفه مباشرة يقول:

"مرحباً بابن النجاتي"

التفت نادر بحذر..

التفت يستقبل هذا الزائر.

## (2)

وقف نادر في مواجهة الضيف القادم دون دعوة يتأمل جسده المكسو بالشعر، عيناه المشقوقتان وهذه القرون في رأسه الطويلة، انخفضت درجة حرارة الغرفة وعادت لطبيعتها فشعر ببعض البرودة تسري في أوصاله، قال مرحباً بضيفه:

"مرحباً يا شيصبان"

خُيل إليه أن شيصبان يبستم وهو يقول:

"اتبعني لنتحدث بالأسفل"

انتهى من عبارته ليتخلخل الهواء مرة أخرى وتهتز الأرضية قليلاً ويختفي من أمام عينيّ نادر الذي التفت حوله فلم يجد ابن طمياش، هدأت نفسه بعض الشيء وزفر وكأنه يطرد عن روحه ما يثقلها، كفكف عرقه الغزير وتحرك إلى أحد الأركان وانحنى على الأرض ثم التفت حوله مجدداً بحذر ليتأكد أنه بمفرده وفي معزل عن العيون، ضغط براحته جزءاً من الأرضية المكسوة بسجاد سميك فصدر صوت معدني خافت لا يكاد يُسمع، أمسك بمقبض خفي لا يظهر للعين ثم سحب المقبض بقوة فانفتح جزء مربع من الأرضية كبابٍ مستتر،

فتح الباب وأراحه على الجدار ثم وقف ينظر عبر الفتحة للحظات، تنهد ثم شرع يهبط درجاً معدنياً وهو يتحسس طريقه بقدم قلقة.

هبط الدرج المعدني بحذر حتى وصل إلى الشقة أسفل مكتبه، مخبأه السري الذي يقوم فيه بأعاجيبه، لا يعلم بأمرها أحد من البشر ولا حتى مساعده سيد، الشقة –والتي يطلق عليها نادر اسم المعمل- لها نفس مساحة مكتبه لكنه أزال الجدران التى كانت تقسم مساحتها، فأصبحت مساحة واسعة مفتوحة إلا من دورة المياه فتركها كما هي، ترى الأعمدة تقف عارية في مواضع متفرقة، الأرضية عارية من أي فرش وتشعر ببرودة بلاطها، الجدران لونها أسود يقتحمها طلاسم عجيبة كثيرة نُقشت بالدم، وهناك طاولة خشبية مستديرة يستقر خلفها مقعد خشبي مفرد، فوق الطاولة تجد الكثير من الخامات والأدوات التى يستخدمها في عمله، دولاب كبير بواجهة زجاجية يحتوى أشياء مختلفة من قوارير وصناديق ،مغلفات بلاستيكية وورقية، بعض الكتب العتيقة، هناك موقد بجوار حوض للأواني مع ثلاجة صغيرة على ما يبدو أن هذا الركن كان مطبخ فيما مضى، رائحة كريهة تغمر المكان حتى أنك تتعجب كيف يمكنه احتمال هذه الرائحة.

التفت بحثا عن شيصبان، ظهر هذا الأخير من العدم تقريباً وكأنه يتعمد إثارة أعصابه لكنه لم ينجح في هذا، فقد ابتسم نادر بخبث وقال:

"ما هذا الذي تفعله يا شيصبان؟! أتحاول إخافتي؟"

لم يجب شيصبان وتأكد أن نادر سيطر على أعصابه بسرعة، فقال:

"ولماذا تظن هذا الظن؟"

أجابه نادر: "أنت لم تزرني منذ فترة وها أنت تأتيني بهيئتك الحقيقية وتطلب أن نتحدث هنا في المعمل الخاص، ألا ترى أن الأمر مبالغ فيه؟"

قال شيصبان بدهاء: "ربما كان بسبب أفعالك المبالغة"

قطب نادر حاجبيه وتغيرت ملامحه، شيصبان يعرف بما يفعله ولا شك، هل وشى به ابن طمياش؟ لا داع للمراوغة كما أنه لن يعترف بلسانه، فليحاول استدراجه فيُخرج ما لديه، قال:

"أفعالى ليست مبالغة، بل هي دليل على قوتي وعلمي"

"وهل امتلكت القوة والعلم؟"

قالها شيصبان بسخرية جلية، فاندفع نادر يقول:

"بالطبع يا شيصبان، أنت تعرف جيداً ما وصلت إليه الآن وما أصبحتُ قادراً عليه، ويمكنني أن ........"

قاطعه شيصبان:

"أفهم ما ترمي إليه يا ابن النجاتي .. أنت تراوغ ولا تريد الاعتراف بخطئك، حسنا .. سأخوض معك في هذا الجدل العقيم"

صمت قليلاً يتأمل ملامح نادر الذي بات واثقًا من أن شيصبان يريده بسبب ذلك الرجل المدعو بمهدي، فأكمل حديثه:

"منذ اليوم الأول لك في هذه الدنيا وجدناك مميزاً، وتوقع لك العظيم ناصورى مكانة خاصة ربما تصل لمرتبة أليستر كراولي(5) نفسه،لكنك بدأت تخيب ظننا بك"

(5) أليستر كراولي Aleister Crowley، أشهر ساحر معاصر ، إنجليزي من أسرة متدينة، كان والده –ويا للعجب- يسير في المدينة يعظ الناس ويدعوهم للصلاة في الكنيسة، من أشهر مؤلفاته في السحر كتاب القانون المعروف بشريعة كراولي (Book of law) وكتاب نص ثيلما المقدس(The central sacred book of Thelema) وتوفى عام 1947م.

اندفع نادر معترضاً:

"أي قول هذا يا شيصبان؟! أنا نادر النجاتي .. السلطان، ترتجف لذكر اسمي أعتى القلوب"

ضحك شيصبان بسخرية مستفزة قبل أن يقول :

"أقول ما تأبى تصديقه، أنت لم تصل بعد للدرجة التي تتخيلها في نفسك .. حتى أنك لم تقرأ عدد الكتب التي قرأها عمك المأفون، صحيح أنك تملك براعة في الكتابة لم يمتلكها أحد قبلك من عائلتك .. لكنك لا تملك إلا القدر اليسير من العلم، وتظن أنك قوي لا تُمس .. عندما يمكنك أن تأتي بفعل خارق بنفسك دون مساعدة خدمك وقتها تكون قد امتلكت العلم والقوة الحقيقية، وإلى أن تفعل فلا تنس مكانتك الحقيقة فتقع في خطأ كالذي وقعت فيه الآن"

لم ينل ما قاله شيصبان رضى نادر، لكنه أدرك ان المراوغات انتهت وشيصبان يعرف بما كان بينه وبين ابن طمياش، فتصنع الجهل وتسائل:

"خطأ .. أي خطأ؟"

ضرب شيصبان الأرض بحافره في غضب وقال:

"لا تتلاعب أيها الفاني التعس .. وإلا لأبلغت العظيم ناصورى بالعهد الذي أخذته على ابن طمياش الغبي"

أصبح الأمر واضحاً مكشوفاً تماماً، فسأل نادر بدهشة:

"وكيف عرفت أنت بهذا الأمر؟"

اقترب شيصبان منه ومال عليه حتى لفحت أنفاسه الساخنة الكريهة وجهه ثم قال:

"عالمنا تحكمه قوانين صارمة، خاصة عندما يحدث تواصل معكم يا أبناء أدم، لذا فكان ينبغي على ابن طمياش أن يسجل العهد الذي أخذته عليه، يسجله عند وليّه المباشر.. أنا"

قال نادر مرتبكاً:

"لم أقصد أي شيء يخالف عهدنا .. بل في واقع الأمر كنت أُخطط لأمر جلل"

قال شيصبان بغضب وعصبية:

"هات ما عندك أيها الفاني مباشرة ولا تراوغ، وإلا سيكون ما بينك وبين الغبي ابن طمياش بين يدي سيدنا ناصورى، فأنت لم تقيدني بعهد ساذج ولن تستطع"

ازدرد نادر لعابه وسيطر على انفعاله في لحظة قبل أن تلمع عينيه ببريق شيطاني وهو يقول بثقة:

"إنني أُخطط لضرب ذلك الرجل المدعو مهدي علام .. والإطاحة به وتقديم دمه تحت قدمي سيدي ناصورى"

صمت شيصبان وغرق في التفكير، طول فترة تفكيره جعلت نادر يسترد ثقته وغطرسته من جديد، فلربما راقت الفكرة لهذا الجني الصامت.

غاب شيصبان في التفكير للحظات قبل أن يقول:

"أنت لا تعرف مع من تعبث يا ابن النجاتي"

هذه العبارة وحدها تكفي نادر ليطمأن، الفكرة تكاد تعجب شيصبان بالتأكيد، وإلا لنهاه فوراً، فقال بسرعة:

"ولهذا قررت التحري عن الرجل لأعرف كيف أدخل عليه وأهلكه، وقبلها سأثبت لك أن ابنة رجب السيناوي ليس لها في نفسي مثقال ذرة"

عقب شيصبان:

"الأمر أصعب مما تظنه، أنت لا تعرف من هو مهدي علام!"

عقد نادر ساعديه أمام صدره بتحد وقال:

"فلتختصر عليّ الوقت والجهد وأخبرني عما أبحث عنه .. وبعدها أرى ما يمكن فعله."

صمت شيصبان من جديد، يقلب الفكرة في رأسه على كل الوجوه، ثم هز رأسه وقال:

"فليكن .. سأخبرك .. مهدي علام رجل من أولئك الرجال اللذين تطلقون عليهم لقب (صاحب كرامة) أو (صاحب أمانة) ما لديه تم بلا عهد ولا قيد، يعينه بعض الأتباع من قبيلة نلعنها فيما بيننا، قبيلة لا تدين بالولاء لربنا الأزلي الشيطان الأعظم، فيما مضى كان بيننا حروب مستعرة، قبل أن يتم السلم ويتجنب كل منا الآخر، هم ضدنا وعلى النقيض منا، هل فهمت ما أعنيه؟"

أخذ نادر يتدبر ما قاله شيصبان، وفهم ما يعنيه تماماً، في قراره نفسه حدد ما سيفعله مع آية، غير أنه أجل التفكير في أمر مهدي علام إلى حين عودته من رحلة خاطفة غاية في الأهمية، لأول مرة يتعرض لمثل هذه المواجهة، قد قهر قبل ذلك بعض الخدام لأكثر من مشعوذ بمنتهى البساطة، لكنه كان يحتمي بقوة ناصورى وقبيلته التي تسيطر على قبائل من أبادهم، أما الآن فالأمر مختلف.

مختلف تماماً.

## (3)

ثَمّةَ أُنأس لهم من القدرة على إتيان ما لا يستطعه العامة من الناس، حتى أن بعضهم يمكنه السير على الماء، لكن لا تصدق أن جميع هؤلاء باعوا أرواحهم للشيطان بعقود موثقة موسومة بالدم، فلقد وهب الله عزَّ وجلّ بعض القدرات الخارقة للمألوف لمن شاء من عباده دن قيد أو شرط، لعلك سمعت هنا أو هناك عن ذلك الشاب الذي يمكنه جرّ شاحنة محملة بالبضائع مستخدما أسنانه، أو ذاك الرجل صاحب الجسم الحديدي الذي لا يخترقه نصل السكين الحاد ،بل أن هذا النصل البتار ينثني وهو يحاول اختراق جسمه، وربما سمعت عن الشاب الذي يقفز من سطح بناية مكونة من ستة طوابق دون أن تجد بجسمه خدش ناهيك عن الكسر، هل سمعت يوما عن كل هؤلاء أو أي منهم؟ حسناً فليس هذا ما أقصده.

ما أقصده هنا أولئك المتعاملين مع العالم الآخر، أو بالأحرى البُعد الآخر في هذا العالم، بُعدُ الجان، من الجن يا صديقي من يعيشون على سطح الأرض، بين البشر، خذ كمثال عُمّار المنازل والقرين، فهم حولك الآن .. الآن، لا تلتفت حولك فلن تراهم بعينيك في ظروف الرؤية العادية، وهناك الجن الغواص الذي يسكن البحار والمحيطات، والجن الضوئي الذي يمكنه الحركة بسرعات خارقة لم

يصل لها علم البشر حتى الآن، هذه مجرد أمثلة وليست كل الأصناف والفئات بالطبع.

إذا كُنتَ قد فكرتَ يوماً لماذا لا ترى الجن وهم حولك في كل مكان في حين أنهم يمكنهم رؤيتك ورؤية البشر بوجه عام فاسمح لي أن أطلعكَ على السبب، عيون البشر يمكنها الرؤية في نطاق موجي محدد، وما دون ذلك فلا تراه العين، والجن لأجسادهم أطوال موجية أقل بكثير مما يمكن للعين البشرية التقاطه[6]، بعض الحيوانات والطيور يمكنه الرؤية في نطاقات غير نطاقات البشر، هذا هو السبب ببساطة شديدة، فلو كانت العيون ترى ما هو دون الأشعة الحمراء لتمكنت أنت الآن من رؤية ذلك العامر القابع في ركن الحجرة عن يسارك ملتصقاً بالسقف.

أنت تعرف أيضا أن الجان يدينون بديانات مختلفة، منهم المسلم والنصراني واليهودي وعبدة الشيطان بمختلف طوائفهم، وكل هذه الطوائف والفصائل منهية عن التواصل مع البشر كما نُهيَ البشر عن الاتصال بالجن، والاتصال يحدث بعهد شيطاني يراق فيه الدم كقربان للشيطان ولكن .. أنت تعرف أن ما يأتي بعد لكن هذه دائماً ما يكون مختلفاً.

في حالات خاصة يخضع بعض الجان لبعض بني البشر بسبب قوة خاصة لدى أولئك البشر، قوة علم الحرف وقوته، فالحروف والأرقام لها سر عظيم لا يعلمه إلا عالم رفيع الشأن، خبير متمرس في

---

([6]) العين البشرية ترى الأطوال الموجية لألوان الطيف السبعة، ولا يمكنها أن ترى الترددات تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية، أما أجهزة الرؤية تحت الحمراء المنتشرة الآن فهي تعتمد على الانبعاث الحراري للأجسام ولا ترى ما دون الأشعة الحمراء بشكل فعلى، ويرجح غالب العلماء أن الجان لهم أطوال موجية تحت اللون الأحمر وهي تحته بدرجات كبيرة جدا.

علم الحرف والجفر، وهو العلم الذي يمَكِّن صاحبه من التحكم في بعض من خَدَمَة الحروف.

ربما تتساءل الآن عن استطرادي هذا، وما علاقة كل هذه المعلومات والأخبار بقصتنا، حقيقة الأمر أن لهذا الاستطراد حتمية وضرورة، مهدي علام .. تذكر الاسم؟ ... أحسنت، هو الرجل الذي يخشاه ناصورى وشيصبان، نفس الرجل الذي يخطط نادر للخلاص منه.

هذا الرجل السكندري على النقيض من نادر، يقف على الضفة المعاكسة للضفة التي تحمل قدمي ابن النجاتي فوقها، رجل تعلم تجويد القرآن الكريم وأتم حفظه وهو بعد فتى يستقبل الحياة بأحلام طفولية، تأدب على يد شيخ جليل، رأى في الفتى مهدي ما لم يراه غيره، القدرة على حمل أمانة علم الحرف والجفر، وبالتدريج أورثه ما يحمله في صدره، وجهزه ليكم مساره ومشواره، فكان خير حلف لخير سلف.

تعود مهدي علام على خدمة الناس، خدمتهم لصرف الضر عنهم بإذن الله تعالى، دون أن ينتظر منهم أو يطلب مقابلا نظير ما يقدمه من خدمات، فتأتيه الهدايا والهبات عن طيب خاطر وصفاء نفس، كم كان سببا في الحفاظ على أُسرٍ كادت تتمزق وبيوت أوشكت أن تتهدم، يسر الله على يديه أمورا فيها خير للناس بمساعدة أعوان يطيعونه ويتفانون في تنفيذ أوامره.

يمكنني تخيل المقارنة التي تعقدها في عقلك بين نادر النجاتي وبين مهدي علام، لا تقارن الند بِنِدِه، النقيض بنقيضه، فهم كالماء والنار، الليل والنهار، النور والظلام، فالأول لا ينقطع عن عبادة تقربه إلى الله زُلْفَى، يكتبُ بمداد من الزعفران والمسك الأبيض المخلوط مع حنة دم

الغزال، يكتب فوق ورق أبيض طاهر ويتلو عليه ما يحصنه من آيات الذكر الحكيم ويعطر مكانه ببخور من المسك والعود والريحان، أما الآخر فلا يتورع عن فاحشة تنديه من الشيطان، يكتب ومداده من دم القطط أو الجديان أو الطيور فوق جلود الحيوانات والطيور النافقة، وينثر في هواءه بخور كريه الرائحة من نبتة الحلتيت والصبرة.

شغل مهدي علام حياته بالتعلم والدراسة، لا يكاد يضيع يوماً بلا دراسة، حتى امتلك قوة لم تكن حتى لشيخه وأستاذه، ويعاونه جن مسلم لا يتأخر عن تنفيذ ما يأمرهم به، جن من قبيلة مسلمة غير متكبرة أو متجبرة، هذه القبيلة خاضت حروباً ومعارك طاحنة مع قبائل الجن الكافرة في زمن قديم بعض الشيء، حروب تشبه حروب الردة التي خاضها أبا بكر الصديق رضي الله عنه[7]، ودامت هذه الحروب طويلاً قبل أن تضع أوزارها.

ومن بين القبائل المعادية كانت قبيلة الشيطان ناصورى، قبيلة من النوع الذي لا يذر في الحرب ولا يدع، تقتل وتخرب وتدمر كل ما يقف في طريقها، حتى بعد نهاية الحروب بشكل رسمي لم يسلم الأمر من بعض المناوشات هنا أو هناك، لكن كل هذا كان فيما بينهم في بعدهم الخاص وعالمهم الذي لا يتقاطع مع عالم البشر، وبعد دخول نادر النجاتي في الصورة يبدو أن الحرب بين القبيلتين توشك أن تندلع من جديد، وعلى صعيد مختلف هذه المرة.

---

([7]) حروب الردة خاضها أمير المؤمنين وخلية رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ضد بعض القبائل التي ارتدت عن الإسلام عقب وفاة رسول الله ونبيه عليه الصلاة والسلام، وقبائل رفضت فريضة الزكاة ووصفتها بالجباية والإتاوة، وقد تمكن جيش الإسلام من الحفاظ على الدين حتى أن معظم القبائل عادت بشكل سلمي دون خوض الحرب ضد جيش المسلمين.

## (4)

أمامنا الآن منظر يأسر الألباب، لوحة متناسقة صنعتها يد العزيز القدير، فسبحانه جل شأنه، مساحات خضراء واسعة ، تترامى على حدد الصورة أشجار عالية كثيفة تحجب عن الصورة غابات متداخلة الأغصان، وفي الخلفية جبال شاهقة تنم ألوانها الزاهية عن حملها لكنوز المعادن المختلفة، تحت قبة زرقاء صافية لا يشوبها شائبة، شمس تنير المشهد لكنا ليست حارة ، بل هي لطيفة ناعمة، تخترق المساحة الخضراء شبكة معبدة من ممرات المشاة التي تتراص على جوانبها مقاعد من الخشب والحديد.

ثمة أشخاص من الجنسين يمارسون رياضات بدنية متنوعة، الركض، ركوب الدراجات والمشي أو الهرولة،كُلُ في ملابس خاصة للرياضة التي يمارسها وقد وضع معظمهم سماعات صغيرة داخل الأذن ليستمع لموسيقاه المفضلة، أخرون متناثرون فوق المقاعد ولا يحصرهم نشاط واحد، فترى منهم المسترخي والقارئ والشارد والذي يطالع بعض الأجهزة الحديثة المختلفة ربما للتسلية وربما لمتابعة الأعمال، قلة من الثنائيات تفترش العشب الأخضر في مناطق متفاوتة البعد فتفهم أن ما يدور بينهما هو حديث المحبين.

ولتتكامل الصورة، تسمع في الخلفية أصوات بشرية متداخل مع أصوات بعض الطيور التي تسبح في فضاء القبة الصافية المميزة

بالأزرق فوق الرؤوس، ثمة صوت لسقوط مياه من عالٍ فلربما ثمة شلال أو أكثر على مقربة من هنا لكن لا تدخل في مجال رؤيتنا

نتحرك الآن وكأننا نلتقط الصورة عبر عدسة كاميرا مثبته بطائرة صغيرة تطير على ارتفاع لا يزيد عن الأمتار العشرة، نتجاوز مساحات العشب والمتنزهين والمتريّضين بسرعة لا بأس بها في مسار مستقيم صوب الأشجار التي تحيط بنا، كلما اقتربنا من الأشجار كلما انخفض معنا منظورنا حتى أصبحت الصورة وكأنها عبر عيني رجل بالغ يسير على قدميه، ها نحن أولاء نصل للأشجار ونخترقها في مسارنا الذي لم يعد مستقيما ولا يمكن أن يظل كذلك، فنحن وإن كنا نتقدم للأمام إلا أننا نسلك مسارات متعرجة بسبب التوزيع العشوائي للأشجار وجذوعها وأغصانها، تتكسر أشعة الشمس لتعطيك إحساس محبب للنفس لما ترى الألوان السبع التي تُكوّن الضوء الطبيعي.

كلما توغلنا بداخل غابتنا كلما تراجعت الأصوات وهدأ الصخب، تدريجيا أصبحنا نسبح في بحر الصمت والسكون، إلا من صوت أنفاسك أو صوت بعض أوراق الشجر الجافة التي تنسحق تحت قدميك من آن لأخر، وصلنا لنهاية هذه الغابة بعد مسيرة ليست بالقصيرة بعدما أرهقنا الالتفاف حول الأشجار، أكاد أُميز لهاثك يا صديقي، لا بأس .. خذ نفس عميق فقد خرجنا من هذه الغابة ووصلنا إلى وجهتنا الحالية، ها هي أمامك، مجموعة من الخيام المنسوجة من الألياف الصناعية، مختلفة المقاسات والألوان، مُخيّم صغير يضم أشخاص من جنسيات مختلفة، بعضهم داخل خيمته والبعض الأخر يشتغل بنشاط ما خارجها، فترى من يُعد بعض الطعام من لحمٍ مشويّ، أخرون يجمعون بعض الأغصان لاستخدامها في إشعال النيران ولا شك، البعض يمارسون طقوس تشبه رياضة اليوجا الروحية، ثَمّة من يعملوا على نصب خيامهم بعد.

هل ارتحت قليلاً؟

حسناً، فلنقترب منهم.

بين الخيام نَمُرّ، أراك تراقب وجوه الحاضرين، الأكثرية لهم ملامح أوروبية، بعض الأفارقة، آسيويين، ملامح عربية أيضاً، لا تحتار فقد اقترينا من هدفنا .. مرحى ها هو هناك، هل تذكرت هذه الملامح المصرية؟ أحسنت، إنه هو .. سيد مساعد نادر.

يجلس سيد عند مدخل خيمة مقسمة إلى شرائح بالونين الأبيض والأزرق، ينفث دخان سيجارة أمريكية الصنع وهو شادر الذهن مشغول العقل، شخصت عيناه في اللا شيء أمامه، بدخل ثنايا عقله تتصارع الأفكار، يمكن أن نعتبره يتحاور مع نفسه وهو يستعيد ذكرياته.

لم يكن سيد سوى شاب طائش يتلذذ بارتكاب الحماقات، مادة خام لمجرم يحتاج لمن يصوغ طريقة، لم يكن من مدمني المخدرات كمعظم المجرمين، لكن الأمر لا يخلو من تناول بعض الحشيش في مناسبات خاصة، بعض التجار كان يستخدمه ليجمع لهم ما يدين به باعة التجزئة، وهو يجيد إجبارهم على السداد بطرقه الخاصة والتي أهمها الاختطاف، شارك بعض الأشقياء في السطو على عدة متاجر وشركات شهيرة، فأصبح وجهه مطلوباً هو وعصابته، ارتقى في الجانب المظلم وأصبح لا يهتم إلا لشيء واحد فقط .. جمع المال مهما كان السبيل، وقع في يد رجال الشرطة بسبب قيامه باختطاف فتاة جامعية واغتصابها في قضية شهيرة وقتها، وانتهى به الأمر خلف القضبان وهو لا يرتدي سوى البدلة الزرقاء الموسومة برقم باللون الأبيض.

قضى في محبسه بعض الوقت، قبل أن يحدث ما لم يفهمه إلا بعد وقت طويل، ذات ليلة أفاق من نومه ليجد نفسه خارج السجن، في غرفة مظلمة لا يعرف الضوء لها درباً، كيف ومتى خرج من محبسه؟

أين هو الآن؟ من الذي قام بإخراجه من السجن؟ كلها أسئلة تلاشت بسرعة حين حدثه صوت لرجل يدور حوله بلا توقف، رجل أخبره أنه رسول سعادته إن أطاعه، ليصبح خادمه وعندها لن يجد اسمه بين أسماء الأشقياء والمجرمين، وحتى القضايا التي أُدين فيها ستختفي وكأنها لم تكن، فقط ليكون خادم مطيع لما يؤمر به، وإن أبى فحياته ستنتهي في لحظة اتخاذه قراره بالرفض .. لم يكن هناك مجال للاختيار.

أصبح خادماً مطيعاً لنادر السلطان، أطاعه لسببين، أولهما أنه يجني الكثير من الأموال، أكثر مما كان يتخيل، أما السبب الثاني والأهم فلأنه يخشاه .. يخشى نادر السلطان، يخشى رجلاً أخرجه من السجن ومحى تاريخه السابق كله في لحظة واحدة، صحيح أنه يعمل تحت إمرته في جرائم مختلفة، أكثرها الاختطاف وهو ما يجيده ويحترفه، لكنه لم يعد مطلوباً للعدالة، ولم يعد مطارداً رغم ما يرتكبه من مصائب.

طبيعة نادر وعمله هي أكثر ما يخيفه، ليس سهلاً أن تعمل مساعداً لرجل يتصل بالجان في كل ليلة تقريباً، لكن لا يهم طالما هو بعيد عنهم، نادر أيضاً دائماً ما حافظ على بعد مسافة بين وبين سيد ولم يشركه في أمره.

كثيراً ما أحضر له سيد بعض الفتيات ويُدخلهن بنفسه إليه في حجرة مكتبه، لكنه يجده يغادر الحجرة منفرداً في كل مرة دون أدنى أثر للفتاة، لم يملك الجرأة ليسأل أو يبحث عن أولئك الفتيات ولا حتى عن سبب احتياجه لهن، كان يختطفهم ويقدمهم له بأكثر من وسيلة ولم يخفق مرة واحدة في تنفيذ الأوامر، لكن الطلب هذه المرة غير مألوف ويحمل بين ثناياه الكثير من المخاطرة، السلطان يريد منه احضار طفلة لا يتجاوز عمرها أربع سنوات.

هذه المرة وجد سيد نفسه مطالب بتنفيذ مهمته في بلاد غريبة لا يفقه حرفاً من لغتها، لم يفهم سبب قدومه مع نادر لهذه البلد، لكنه تعلم ألا يسأل أو يناقش، يذكر أنه سمع غير مرة من بعض الشباب الساعي إلى الهجرة أن سفارات الدول تدقق في إجادة المسافر للغة البلد قبل منحه تأشيرة الهجرة، فكيف تمكن نادر من استخرج واحدة له دون المرور بكل هذه الإجراءات؟ ربما لأنه مسافر في رحلة سياحية وليس مهاجرا، ليس هذا ما عليه أن يصب تركيزه عليه الآن، عليه أن يصوب تفكيره كله صوب هدف واحد، خطف طفلة من هذا المنتجع الذي لا يذكر اسمه، خاصة وأن نادر سيصل ليستلمها منه قبيل غروب الشمس، أطلق في نفسه سبة وجهها إلى نادر وإلى هذه البلد التي يرى نورها للمرة الأولى في حياته ... كندا.

عُد معي إلى المسطحات الخضراء الرائعة التي يمتاز بها منتجع ومحمية منتزه ناهاني الوطني بكندا[8]، وبالتحديد عند بداية الغابة التي اجتزناها قبل قليل، يمكنك أن تلمح سيد يتوارى خلف واحدة من الأشجار، يراقب الأطفال الذين يلهون هنا وهناك على مسافة غير قريبة منه، يراقبهم بدقة ويبحث عن وسيلة ليقتنص واحدة من بين الأطفال، ظل في مكمنه وعلى ترقبه حتى بدأ الملل يشعل نار اليأس في أعماقه، وتراءت له ملامح عدم قدرته على تنفيذ مهمته وهو أمر لم يختبره منذ عمل مع نادر السلطان.

بلا أي خطة أو ترتيب خرج من مخبأه وتقدم إلى الحديقة وهو يضع كفيه في جيبي سرواله، ويطلق من شفتيه صفيراً للحن أغنية

([8]) محمية المنتزة الوطني بناهاني (Nahanni National Park Reserve) في شمال كندا ، يقع على مساحة تصل إلى 11000 ميل تقريبا، محمية طبيعية تلتقي فيها ألوان الطبيعة المختلفة وهي جزء من سلسة جبال ماكنزي (Mackenzie Mountain)، يحتضن نهر نهاني وشلالات فيرجينيا.

شعبية قديمة في محاولة منه لطرد توتره، يشعر وكأن العيون تلاحقه وتلتصق بجسده وهم يصرخون هذا الرجل مصري ويضمر الشر في أعماقه، لكنه لا يرى أحداً ملتفتاً له على الاطلاق، سار لكنه تعمد أن يكون بمحاذاة الأشجار حتى يسارع بالفرار إذا ما تأزم موقفه لأي سبب.

تناهى إلى مسامعه صوت أزيز يقترب من خلفه، التفت بسرعة ليجد طائرة كهربية صغيرة تطير بواسطة جهاز تحكم عن بعد تقترب منه في سرعة وتمر فوق رأسه بمسافة معقولة، ويتابعها ركضاً مجموعة من الأطفال الصغار الذين يضحكون في براءة حقيقية، لمعت عيناه حين مروا من أمامه، وانصب تفكيره على هذه الفتاة الشقراء التي لا يمكنها اللحاق برفاقها لصغر سنها وضعف ساقيها، على شفتيه تكونت ابتسامة خبيثة .. هل تعرف الابتسامة الخبيثة؟ هذه واحدة منها، واحدة خطرة.

بعد حوالي الساعتين، وبينما سيد يجلس عند مدخل الخيمة الملونة بالأبيض والأزرق، شارد الذهن ينفث دخان سيجارته أمريكية الصنع، أجفل وهب واقفاً حين ظهر أمامه نادر بغتة وكأنه خرج من العدم، ألقى سيجارته بعيداً وهو يقول:

"مرحبا أيها السلطان"

لم يرد نادر التحية بل سأله مباشرة بملامح جامدة تجسدت فيها القسوة:

"هل قمت بمهمتك يا سيد؟"

ابتسم سيد وهو يجيب بثقة:

"بالطبع أيها السلطان، وهي بالداخل تغط في نوم إجباري"

لانت ملامح نادر وتحولت القسوة فيها إلى راحة وهو يقول مبتسماً:

"يبدو أنك تأقلمت بسرعة على أجواء المكان"

هز سيد رأسه وهو يقول:

"أية أجواء يا سيدي؟ أنا لا أفهم حرف من لغة أولئك القوم هناك في الحديقة، حتى هؤلاء العرب المقيمين في مخيمنا هذا لا يسمح لي الاختلاط بهم"

نادر:

"اطمئن يا سيد .. سنرحل عن هذا المكان غداً في المساء"

قالها ثم ترك مساعده حيث يقف ودخل إلى الخيمة، تقدم من الطفلة المكبلة مكممة الفم، مال يتفحصها كأنها دمية جامدة وليست بشرية حية، فاستفاقت البنت ونظرت إليه نظرة هلع بعينين جاحظتين ثم انهمرت دموعها مع صرخات مكتومة ضعيفة، يبدو أنها عانت البكاء كثيراً في الساعات الماضية، تركها نادر وتحرك ناحية طاولة متوسطة عليها الكثير من الصناديق البلاستيكية وحقيبة متوسطة من تلك النوعية التي يحملها الرحالة على ظهورهم، فتح واحد من الصناديق الصغيرة وأخرج منه قنينة تحوي سائلاً في لون العسل، ثم أخرج من نفس الصندوق محقناً وفض غلافه الورقي قبل أن يقم بملئه بذلك السائل، عاد إلى الطفلة التي فاضت أنهار عينيها الدامعتين وبلا تردد أو شفقة غرس إبرة المحقن في وريدها العنقي، ودفع السائل بسرعة ليمتزج بدمها وينتشر بسرعة البرق في جسمها الضئيل، فتوقفت البنت عن البكاء والنحيب وباتت أشبه بدمية شمعية، لولا حركة صدرها مع تنفسها لظننتها قد ماتت.

وقف نادر للحظة يتأمل الطفلة في جمود، دلف سيد إلى الخيمة فالتفت إليه وقال بلهجة آمرة:

"أغلق الباب"

بسرعة أسدل سيد جانبي الباب المصنوع من نفس نوعية قماش الخيمة، ثم شرع يحكم ضم الجانبين بواسطة السحّاب حتى انغلقت الخيمة، التفت فوجد نادر يقف أمام الطاولة المتوسطة، فجلس على الأرضية المصنوعة من الألياف الصناعية متربعاً يراقب سيده في صمت.

تناول نادر الحقيبة وفتحها، أخرج منها عباءة سوداء كالليل البهيم ذات قلنسوة، وأخرج خفين بذات اللون، ثم حملهما وتحرك إلى نهاية الخيمة حيث الفراشين الأرضيين المجهزين للنوم ووضع حمله على الفراش الأيسر بحرص وجلس، ثم شرع يتجرد من ملابسه بالكامل دون أن يعبئ بمساعده الذي يبتعد عنه بضعة أمتار فقط.

أشاح سيد بنظره بعيداً ، وعادت التساؤلات تتصارع في عقله، وهو يحاول أن يتخيل ما الذي سيقدم عليه سيده، لكن في أعماقه تعالى صوت يخبره بأن ما سيقبل عليه سيده هو أمر جلل.

# الفصل الرابع

# القداس الأحمر

## (1)

قبل ساعة ونصف الساعة على غروب الشمس فتح سيد باب الخيمة وخرج ليتبعه نادر الذي ارتدى العباءة السوداء وأسدل قلنسوتها فأخفت رأسه وملامحه وهو يحمل الحقيبة على ظهره ويمسك الطفلة الشقراء بيمينه بعدما قام بتغيير ملابسها بواحدة من تلك العباءات السوداء لكنها ذات مقاس صغير يناسبها تماماً، الطفلة واعية لكنها مسلوبة الإرادة بفعل العقار الذي حُقنت به، وكأنها مسحورة لا تقو على شيء.

الغريب أن جميع الخيام فُتحت في التوقيت ذاته بتناسق رهيب، وخرج من كل واحدة من يرتدون العباءات السوداء مع مساعديهم، ووقف الكل لدى بابه وقد تعلقت العيون برجلين يقفان في منتصف المخيم تماماً، يرتديان عباءتين مماثلتين إلا أنهما باللون الأحمر، وارتفع صوت الصمت لنصف دقيقة كاملة، قبل أن يبدأ أحد الرجلين في الكلام بالإنجليزية.

لم يفهم سيد أي شيء، نادر لم يخبره بسبب هذه الرحلة ولا تفاصيلها، وقد تعود ألا يسأل، فطالما هو مطيع وصامت فهو ينال جزيل العطاء، لكن الأجواء التي يعيشها الآن تثير في نفسه قلقاً بالغاً، يزيد هذا القلق كلما تكلم من حوله بلغة لا يفهمها.

انتهى الرجل الأول من كلامه فعاد الصمت يصدح في المكان، هذه المرة للحظات قليلة، فقد تكلم الرجل الثاني، أو بالأحرى بدأ ينشد

أنشودة بطريقة ظنها سيد تشبه طريقة غناء الشمامسة في الكنائس، ربما سمعهم ذات مرة في أعياد القيامة قبل شم النسيم، لكن هذا الذي ينشد أمامه يتلو آهات طويلة كئيبة وبعض الكلمات الغامضة التي يمط حروفها بنفس لا ينقطع، أجفل فجأة حين ردد نادر وكل المتشحين بالأسود جملة واحدة في نفس الوقت:

"Agios O Lucifer"

عبارة سمعها جيداً لكن لم يفهم حرف منها، لكنه ميّز فيها كلمة لوسيفير، هذه الكلمة سمعها في أحد المسلسلات الأمريكية التي اعتاد أن يتابعها عبر شبكة الإنترنت، وهذه الكلمة يعرف معناها تمام المعرفة، يعرف أنها تعني الشيطان.

استمر الرجل في غنائه وكذلك ترديد السحرة لتلك العبارة وكأنهم الكورال المصاحب لذلك الرجل، طوال عشر دقائق كاملة ظل الرجل ينشد وهم يرددون خلفه عبارتهم الثابتة التى لا تتغير، انتهى من هذا النشيد الكئيب فتكلم الرجل الأول ببضعة كلمات، ثم تحرك الرجلين وبدأ موكب السحرة في متابعتهما.

تباطئ نادر قليلاً وقال هامساً مخاطباً سيد:

"استمتع بليلتك وأراك في صباح الغد"

ثم انخرط في موكب السحرة مرتدياً السواد في مسيرة يتصدرها الرجلان باللون الأحمر، اخترق السيارة الأشجار ولكن في الاتجاه المعاكس لحديقة المنتزه الوطني، ذلك الاتجاه الممنوع التحرك إليه بأوامر السلطات الكندية، لأن ما خلف هذه الأشجار أمر مخيف ومرعب.

اختفى السحرة خلف الأشجار، وهنا دبت الروح من جديد في المخيم، لم يعد هنا سوى المساعدين فقط، أطلق البعض صفارات وصيحات فرحة، انبعثت أصوات موسيقى غربية لم يعتدها سيد، بدأ المتواجدون في إخراج صناديق مختلفة من داخل الخيمات، صناديق تحوي زجاجات واضح أنها زجاجات خمر، صناديق أخرى لأصناف مختلفة من الفاكهة، صناديق من الورق المقوى لا يعرف ما تحتويه، يبدو أن ليلتهم ستكون صاخبة .. جداً.

لاحظ سيد أن حظر الاختلاط قد انتهى، لم يخبره نادر بهذا، لكنه يرى الآن أن الكل اختلط وأصبح الجميع يتعاملون مع بعضهم البعض بعكس الليلة الماضية أو هذا النهار الذي شارف على الرحيل، ربما عليه أن ينضم إليهم فقد أوشك أن يموت ضجراً، لكنه لا يحمل معه أي مما يخرجوه الآن، فقط معه قوته وقوت نادر لا أكثر ولا أقل ولا يجد ما يشاركهم إياه، سيكون ضيفاً ثقيلاً ولا شك، لمح رجلاً يقترب منه فاستدار نحوه مترقباً، أقبل عليه الرجل وقال بلغة عربية وبلهجة أهل بلاد المغرب العربي:

"أنت مصري ولا شك"

شعر سيد بالارتياح لأنه أخيراً وجد من يتكلم العربية، حتى لو بتلك اللهجة التي بالكاد يفهمها، فابتسم وقال:

"بالفعل أنا مصري"

سلم عليه الرجل بحرارة قبل أن يسأله:

"ولماذا لا تنضم إلينا يا أخي؟"

هز سيد كتفيه وقال:

"لم أك أعلم أن حظر الاختلاط قد انتهى"

رفع الرجل حاجبيه وقال:

"لابد وأنها مرتك الأولى يا أخي"

أومأ سيد موافقاً وهو يقول:

"بالفعل هي كذلك .. المهم أنني وجدت من يمكنني التواصل معه فأنا لا أتحدث سوى العربية، بالمناسبة اسمي ...."

قاطعه الرجل بإشارة من يده قائلاً:

"لا أسماء يا أخي .. لا أسماء"

ثم اقترب منه ولف ذراعه حول كتفيه وسارا معا وهو يقول:

"بما أنها مرتك الأولى فأخبرك بكل التفاصيل والقواعد هنا .. والآن لننضم إلى المجموعة لنُحضِّر الحفل"

تبعه سيد وقد شعر للمرة الأولى أن هذه الرحلة ستحمل إليه بعض المرح.

## (2)

موكب السحرة يتحرك ليهبط أحد الجبال عبر ممر ضيق جداً لا يسع إلا شخص واحد، يتقدمهم الرجلين في الزي الأحمر، طابور طويل يهبط بحذر في مسار دقيق، وتلونت السماء بلون برتقالي خلاب معلناً رحيل الشمس والاستعداد لاستقبال الليل وظلامه، نادر يتحرك قريباً من ذيل السلسلة البشرية، أصبح عليه أن يحمل الطفلة فلا مجال هنا لتسير بجواره، كان يشعر بالرهبة والتوجس، هذه أول مرة في حياته يهبط فيها جبلاً شاهقاً عبر ممر دقيق منحوت في الجبل، ومع خوفه وقلقه بالإضافة لحمله الطفلة شقراء فقد غمر العرق جسده بشدة، وتمنى ولو حتى يزيح القلنسوة عن رأسه للحظات، لكنه يخشى عقوبة مخالفة الأوامر، اقترب من الوصول إلى الوادي أسفل الجبل، فلمح على ضوء الشمس المودّعة نهر ناهاني.

أخيراً وصلوا إلى سفح الجبل، وأصبح الموكب يسير على أرض أفقية، بمحاذاة النهر، هنا عاد الرجل لينشد أنشودته مجدداً، ويردد السحرة خلفه كما فعلوا في المخيم، أما نادر فلم يترك فرصة يختلس النظر فيها لما حوله إلا وفعل، كان قد سمع كثيراً عن هذا الوادي وما يحيط به من أساطير، قلة فقط هم من يعرفون سر هذا الوادي الغامض والممنوع على عوام الناس دخوله، لأن الداخل إليه مفقود،

بل ومقطوعة رأسه، ولهذا سمي الوادي بهذا الاسم المخيف .. وادي الرؤوس المقطوعة [9].

الوادي المنبسط يضم في قلبه نهر ناهاني، وترى بعض النباتات البرية هنا وهناك، لكن مع ذهاب الضوء أصبحت الرؤية صعبة للغاية، خاصة وأنه لا يسمح للسحرة بحمل المصابيح، فقط يسير الموكب خلف دليلهم ورفيقه المنشد ووحدهما من يحفظ المسار، ضوء القمر الضعيف لا يكشف تفاصيل المكان.

مر نادر أكثر من مرة بجوار بعض الحفر الأرضية التي لا يرى قاعها، حفر لم يستطع فهم سبب وجودها ولا استنباط ما يوجد داخلها، قبل أن يعرج السيارة على منطقة تفجرت فيها الكثير من العيون التي تنفر منها المياه الساخنة وكأنها فوق مرجل مشتعل، بدأ الإرهاق يضرب جسده خاصة وأنه لا يعرف متى ستنتهي رحلتهم هذه.

اجتازوا منطقة العيون الحارة، ومروا بين جبلين خلال طريق ضيق غير ممهد، قبل أن يخرجوا إلى مساحة مستوية محاطة بالجبال، مغلقة بالكامل ولا سبيل للدخول أو الخروج إلا عبر الطريق الضيق الذي سلكوه قبل لحظات، الغريب أن القمر يسطع في منتصف سماء

---

([9]) وادي الرؤوس المقطوعة (The valley of headless men) والذي يقع خلف محمية منتزه ناهاني الوطني هو أحد أغرب الأسرار والأساطير، تكونت الأسطورة مع مطلع القرن الثامن عشر عندما توجه بعض المستكشفين الأوروبيين للوادي في محاولة للتنقيب عن الذهب وكنوز الجبال، وفجأة اختفت البعثة قبل أن يجدوا جثث أعضائها عند النهر وكلهم بلا رؤوس، واستمرت هذه الحوادث الغامضة حتى أن في عام 1969 م اختفت مجموعة من المخيمين عددهم 44 شخص ولم يعثر لهم على أدنى أثر حتى اليوم، ولهذا منتعت السلطات في المنطقة الناس من دخول الوادي واعتبر منطقة محرمة، وتنتشر شائعات عن وجود وحوش أسطورية تقوم بفصل رؤوس البشر وتلقى الأجساد بعيدا، وثمة شائعات أخرى عن كيانات شيطانية تسيطر على المكان، لكن حتى اليوم لم تتكشف حقيقة حوادث الاختفاء وقطع الرؤوس.

هذه الساحة تماماً، فكان ضوؤه الفضي يسمح لهم برؤية جيدة، تأمل نادر الساحة، أشجار كثيرة تنمو في مواضع متفرقة، أشجار يعرفها حق المعرفة، جذوعها ضخمة أغصانها غير مورقة، أما ثمارها فكانت من الجماجم البشرية، تماماً كشجرة الرؤوس أسفل بيت النجاتي في قريته، رفع عينيه يتأمل الجبال التي تحدهم من كل صوب، كهوف كثيرة منتشرة في الجبال، شعر بألفة عجيبة مع هذا المكان، قبل أن يقطع عليه تأملاته صوت دليلهم وهو يأمرهم باتباعه مجدداً.

اكتشف نادر أن إرهاقه تبدد بمجرد دخوله لهذه الساحة، تحركوا خلف دليلهم وعاد المنشد ليتلو أنشودته الشيطانية وبدأوا في صعود الجبل عبر ممر ضيق كذلك الذي سلكوه نزولاً أول الرحلة، عاد نادر ليحمل الطفلة الشقراء من جديد، وهو يتحرك برتابة بين السحرة، الصعود دائماً أكثر مشقة من الهبوط، تلك حقيقة علمية، لكن في هذا المكان الغامض الأمور مختلفة، والعلم لا دخل له بما يحدث هنا، فقد كان الصعود يسيراً وسريعاً رغم بطء إيقاعه، وأصبح الموكب يسري في ممر أفقي أكثر اتساعاً في منتصف الجبل تماماً، يتحركون خلف دليلهم والمنشد باتجاه مدخل كهف كبير، يمكن أن ترى ضوء أحمر من خلال المدخل.

تحرك الموكب حتى عبر الدليل والمنشد مدخل الكهف، يتبعهم السحرة في تتابع منتظم، المنشد ينتهي من أنشودته مع دخول أخر السحرة إلى الكهف، فيردد السحرة خلفه عبارتهم اللاتينية:

"Agios O Lucifer"

## (3)

داخل الكهف عالم غريب، مساحة كبيرة جداً ممهدة ومصقولة، كثير من السحرة بملابسهم السوداء، مشاعل مثبته في مواضع مختلفة من النحاس والذهب، مشاعل تحمل شموعاً سوداء هي المسئولة عن إضاءة المكان، إلى يمين الساحة عرش كبير مصنوع من العظام وتزين مسندي اليدين جمجمتين بشريتين، أما ظهر العرض فهو بالكامل من الجماجم، يحيط بأركان العرش أربع مشاعل هي الأكبر على الإطلاق، تشتعل فيها النار مباشرة بلا شموع سوداء، وأمام العرش على مسافة أمتار قليلة يقبع مذبح حجري له شكل يعرفه نادر جيداً ويألفه، أما جدران الكهف فتجد بها بعض الفتحات التي تبدو كمداخل لكهوف صغيرة، واحد فقط من هذه المداخل يقف عليه حارسان في الملابس الحمراء.

أشار الدليل بيده إلى مجموعة السحرة وأمرهم باتخاذ أماكن محددة فأطاعوه، قبل أن يرحل هو والمنشد ويختفوا داخل أحد الكهوف الصغيرة، تفقد نادر ما حوله، كان من الواضح أن كل الموجودين من السحر لأنهم يرتدون نفس العباءات السوداء، يفترشون الأرض ووجههم شطر العرش الكبير، يبدو أن مجموعته كانت الأخيرة في الوصول.

فجأة، ارتفع في المكان صوت عجيب، صوت كأن الأرض تهتز جراء زلزال عنيف، غير أن الأرض ثابتة راسخة تحتهم، خرج من الكهوف الصغيرة التي بلا حراسة مجموعة من الأقزام في عباءات حمراء ذات قلنسوات تخفي رؤوسهم يحملون صفحات يتراص فوقها كؤوس ذهبية يطوفون بها على السحرة، وصل أحدهم إلى نادر وقدم له الصفحة التي يحملها فتناول نادر واحد من كؤوس الخمر وهو يتابع القزم الذي يبتعد بسرعة، لمح ذيله الصغير يتدلى أسفل العباءة فعرف نادر أن الأقزام ما هم إلا جن أرضيين.

جرع السحرة الخمر في توقيت واحد ثم هتفوا جميعا:

"Oh, Holy Satan... Oh, Holy Baphomet"

تكرر الأمر كثيراً، الجن يطوفون عليهم بالخمر، يتجرعونها في توقيت واحد ويصيحون تمجيداً للشيطان، بدأت النشوة تسري في عروق السحرة ونادر منهم، وبدأ يشعر بقوة وجسارة، كان يشعر بالتميز لكونه أول ساحر مصري ينضم لطائفة (الجمجمة الفضية) على مستوى العالم، وها هو يحضر القداس السنوي من أجل تعميده هو ومجموعة من السحرة المنضمين حديثاً للطائفة.

خرج عدد من الرجال أصحاب العباءات الحمراء من الكهوف الصغيرة، حقيقة الأمر لا تعرف أهم رجال من البشر أم جان متجسد، توزعوا حول الساحة فهب السحرة واقفين، ثم بدأ الكل يردد أغنية الشيطان، لينادوا على الشيطان بافوميت ويستجدوه ليحضر بينهم ويجلس على عرشه سفيراً عن لوسيفير، وأن يتقبل منهم قرابينهم المختلفة.

Oh Holy Satan

**Oh Holy Baphomet**

**I come to, the almighty and eternal Daibolus**

**The pride of my heart**

**I commend them to hit the nails**

**I commend them to hit the spear**

**Jesus Christ lives no more**

**I forbid your God**

**I deny your Savior**

**I throw my brimstone of Hell's**

**Black wrath upon you**

**Oh Holy Satan**

**Oh Holy Baphomet**

**Let there be ecstasy**

**Darkness descends**

**Chaos arrives**

**Holy Satanas**

**Desecrate the temple of Jehovah's**

**Rot the minds of sheep**

**I spit on your face**

**Laugh at your concept of sin**

كرروا غناءهم الكئيب مرددين تلك الأغنية اللعينة، وقد فقدوا إحساسهم بالوقت، وتوالى عليهم الجن بالخمر، وفي كل مرة يكرروا فيها الغناء يرفعون أصواتهم شيئاً فشيئاً، حتى باتوا يصرخون بشدة.

دوى في المكان قرع جرس خفي كأجراس المعابد، فتعالى الصراخ والهتاف، ثم تحرك الحارسان الواقفان على مدخل ذلك الكهف ليفسحا المجال لذلك القادم، فاشتدت حدة الصراخ باسم بافوميت، فخرج من الكهف كائن طويل ووقف بين الحارسين في تؤدة وثقة، طوله يصل لثلاثة أمتار، تغطيه عباءة حمراء ذات نقوش سوداء، رأسه تحت قلنسوة تخفي ملامحه، يخرج من جانبيها قرنان ملتفان عظيمان، العباءة أقصر من أن تغطي قدميه اللتين تشبهان قدمي الجديان.

ما إن خرج بافوميت حتى خرّ السحرة كلهم ساجدين، وعم الصمت التام، تحرك سفير الشيطان يتبعه حارساه متجهاً إلى عرشه، فتسمع صوت خطواته على الأرض المصقولة، جلس على العرش وفي نفس اللحظة اشتعلت خطوط رفيعة من النار في الحائط خلف العرش، خطوط النار رسمت دائرة كبيرة بداخلها نجمة خماسية مقلوبة وهذه النجمة بداخلها وجه هذا الشيطان وقرنيه.

اعتدل السحرة وتحرك الرجال في العباءات الحمراء وتجمعوا على جانبي المذبح، إشارة من يد بافوميت ذات الأصابع الرفيعة والأظافر الطويلة تبعها هتاف السحرة باسمه للحظات قبل أن ينادي واحد من أصحاب الزي الأحمر بأحد الأسماء، فتقدم اثنان من مرتدي الأسود ووقفوا أمام المذبح مباشرة، تقدم منهما رجلان بملابسهم الحمراء، وجرداهما من العباءتين السود، أحدهم رجل بالغ والثانية فتاة مراهقة وقفا عاريين من أي شيء، قاد الرجلان الفتاة ومدداها فوق

المذبح فركع الرجل على ركبتيه وطأطأ رأسه، تقدم أخر من ذوي الرداء الأحمر وأخرج يده فإذا بها تحمل سيف بتاراً، صاح السحرة باسم بافوميت فهو الرجل على عنق الفتاة بضربة أطاحت برأسها التي أسرع أخر بحملها وتركها تحت قدمي بافوميت، قبل أن يجمع الرجال دم الفتاة في جرة ذهبية وسط صياح السحرة بجنون، ويسكب جزء منه على جسد الرجل الراكع، ثم يناوله الجرة، فقام الرجل بعدما تلون جسده بالدم ورفع الجرة في وجه سفير الشيطان ثم ارتشف منها رشفة وعاد بين صفوف السحرة وناولهم الجرة ليرتشف كل منهم رشفة من دم الفتاة التي حمل الرجلان جسدها ووضعاه أرضاً بعيداً عن المذبح.

عاد المنادي ينادي على اسم جديد فتكرر الأمر عينه، وهكذا استمر الحال، كان السحرة بين رجال ونساء، كل منهم يقدم فتاة مراهقة لسفير الشيطان المتربع على عرشه في خيلاء، ويرتشف الجميع رشفة من دم القربان، ثم جاء الدور على نادر، بالمصادفة كان آخر السحرة الجدد المتقدمين للتعميد، تقدم في حماس شديد ساحباً قربانه في يمينه، لما رأى السحرة أن ضحيته طفلة زاد هتافهم وصراخهم، تتابعت عملية التضحية كمثيلتها السابقة إلى أن صب الرجل بعض الدم فوق رأس نادر وجسده، ثم تغيرت الطقوس إذ ناول الرجل جرة الدم إلى بافوميت الذي عب ما فيها جرعة واحدة وسط صياح السحرة الذين ذهبت عقولهم تماماً، ألقى رسول الشيطان الجرة الفارغة أرضاً ثم قام من جلسته وأشار بيده نحو السحرة ثم عاد إلى جلسته من جديد، كانت إشارته تلك تعني إنتهاء مراسم تعميد السحرة الجدد وانضمامهم للطائفة وقبوله لما قدموه من قرابين ودماء.

اختلط الحابل بالنابل، تراجع الرجال في العباءات الحمراء وتراصوا على جانبي العرش، أما السحرة فخلعوا عباءاتهم ونعالهم

وامتزج الجميع في مجون، الكل فوق الكل، الكل في الكل، كل أنواع الشذوذ والعهر تُرتكب بمباركة مبعوث الشيطان، حتى أن بعضهم أتى الجثث مقطوعة الرؤوس من سبيلها.

وعاد الجن يطوفون بكؤوس الخمر الممزوج ببعض دماء القرابين الطازجة، فيزداد الماجنون جنوناً وعربدة، ودام الحال حتى أوشكت الشمس على الشروق ودخل وقت الفجر، فرحل بافوميت وحارسيه، كذلك تراجع الرجال أصحاب الزي الأحمر إلى داخل الكهوف الصغيرة تاركين الساحة للمعربدين.

خارت قوى السحرة فراحوا في نوم يُسمع غطيطه من خارج كهف الموبقات هذا، ناموا لساعات حتى منتصف النهار تقريباً، الغريب أنهم استيقظوا دفعة واحدة وكأن هناك من أيقظهم، لم ينطق منهم أحد ولم يلتفت أحدهم للأخر، ارتدوا عباءاتهم ونعالهم وغطوا رؤوسهم.

خرج من الكهوف الصغيرة الرجال في العباءات الحمراء ثم انقسموا إلى مجموعات ثنائية، نادى كل دليل على مجموعته التي قادها قدوماً قبل ساعات، ثم شرعوا في مغادرة الكهف معلنين انتهاء الاجتماع الشيطاني.

سلكت نادر وسط مجموعته نفس المسار للعودة إلى المخيم، رحلة العودة أصبحت شاقة جداً، ما فعلوه طيلة الليل أنهك قواهم، حتى الدليل نفسه كان يتحرك ببطء هو الآخر، عبروا منطقة العيون الحارة قبل أن يجتازوا تلك المساحة المليئة بالحفر الأرضية، شقوا طريقهم بمحاذاة النهر، رغم أن الشمس في كبد السماء إلا أن نادر أو أحد من السحرة لم يكن لديه من التركيز أو الرغبة ليتفقد المكان بدقة، صعدوا الجبل عائدين إلى الغابة حيث المخيم، استغرقت رحلة العودة ما يقارب الساعات الثلاثة، وصلوا أخيرا إلى المخيم فتركهم الدليل دون أن ينبس ببنت شفة وولى راحلاً.

وجد السحرة مساعديهم على حال يشبه حالهم عند استيقاظهم داخل الكهف، الجميع نيام والأغلبية عراة، زجاجات الخمر وبقايا الطعام في كل مكان، رائحة الحشيش والمارجوانا تخالط رائحة اللحم المشوي، بحث كل منهم عن مساعده أو مساعدته، وجد نادر مساعده يرقد على مقربة من خيمتهما، لا يرتدي غير سرواله التحتي، وفي ذراعيه امرأة ذات ملامح لاتينية، مال يهزه ليوقظه في نفس اللحظة التي وجد فيها رجلاً أخر يحاول إيقاظ هذه المرأة دون أي تعقيب.

انتفض سيد فزعاً وابتعد عن المرأة وهو يحدق في وجه نادر والرجل الآخر بعدم تركيز، جاهد عقله الذي أنهكته الخمر والنساء طيلة الليل ليفهم أو يتذكر ما حدث دون جدوى، شعر بالرهبة لمظهر نادر المتلطخ ببعض الدم الذي علق به جراء تعميده، لكنه قام وهو يتبادل نظرة مع المرأة التي كانت بين ذراعيه وقد استفاقت لتوها، تبع سيده في عدم اتزان إلى داخل الخيمة وقد توصل عقله المنهك إلى أمر واحد واضح الآن.

هذه الرحلة السريعة قد انتهت.

# الفصل الخامس

## وجهاً لوجه

## (1)

يهبط نادر الدرج المعدني المتواري في مكتبه نازلاً إلى معمله الخاص، يحمل في يساره تلك الحقيبة التي كانت معه في رحلة تعميده في طائفة الجمجمة الفضية، ويمناه تتحسس الجدار حتى وصلت إلى مفتاح الإنارة فضغطه، أضاء مصباح فوق الطاولة تماماً وآخر قرب دولاب الحفظ، توجه على الفور إلى الطاولة ووضع الحقيبة فوقها ثم تحرك إلى الدولاب ذي الواجهة الزجاجية، أخرج قارورة بها سائل أحمر، عدداً من الصناديق المعدنية الصغيرة، مبخرة متوسطة الحجم ومغلفاً بلاستيكياً صغير به بعض أوراق من نبات ما، عاد إلى الطاولة وجلس وهو يرتب ما أحضر أمامه في هدوء.

فض المغلف البلاستيكي فوق المبخرة ثم أشعل النار فيها بواسطة قداحة كانت فوق الطاولة، فتح علبتين وأخذ بعض من محتوياتها ونثرها ببطء فوق المبخرة، تصاعدت رائحة كريهة لا يمكن احتمالها، وكأنه أحرق حيوان نافق تعفنت جثته مسبقا مستخدما القار الساخن.

ظل يراقب خيوط الدخان المتراقصة والتي تتصارع فيما بينها أيها يبلغ سقف الحجرة قبل الآخر، خيوط الدخان تبدو كأفاع تلتف حول

بعضها البعض فيزداد طولها شيئاً فشيئاً لكنها أفاعي بلا رؤوس، تناول علبة أخرى صغيرة في مساحة عملة معدنية وسمكها لا يتجاوز مليمترات خمسة، فتحها وأفرغ ما فيها فوق المبخرة، فاشتعلت نار زرقاء الألسنة وتوهجت في طرفة عين، أصبحت الرائحة أكثر كراهة لدرجة لا يمكن وصفها، فتح حقيبة الظهر ومد يده بداخلها لتخرج حاملة رقعة جلدية لها شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع، رقعة من جلد خاص جداً، فهي من بطن واحدة من قرابين القداس الشيطاني.

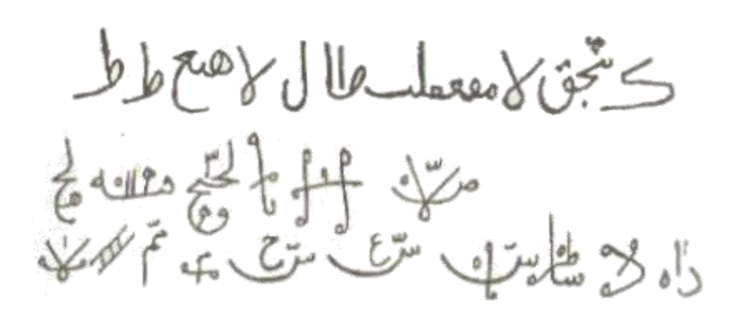
أمسك الرقعة بأطراف أصابعه وبدأ يمررها فوق الدخان المتراقص بعيداً عن اللهب الأزرق ليشبعها بتلك الرائحة العفنة، داوم على ما يفعل حتى خمدت النار وصارت رماداً، فترك الرقعة بحرص فوق الطاولة، وهو يحرك كفه فوقها ولا يلامسها وكأنما يتحسس الحرارة المنبعثة منها، ولما تأكد أنها وصلت لدرجة الحرار المطلوبة قام وعاد إلى دولاب الحفظ وأخرج واحداً من الكتب العتيقة ليرجع إلى حيث كان.

قلب صفحات كتابه والذي اصفرت صفحاته وبهتت كتابتها إلا أنها لا تزال واضحة لدرجة لا بأس بها، توقف عن صفحة بعينها ووضع الكتاب على مقربة من الرقعة الجلدية، تناول علبة معدنية طويلة وفتحها ليخرج قلماً من خشب البوص مصنوع بطريقة خاصة ليكتسب سنه شكلاً محدداً، قبل أن يأخذ القارورة ويفتحها ثم يغمس القلم فيها ويخرجه بحرص وهو يلقي نظرة على صفحة الكتاب ثم ينقش على الرقعة الجلدية بتمهل وحذر.

هذه الطريقة في الكتابة لا تمكنه من كتابة الكثير فالحبر الدموي ينفذ بسرعة، فكان يغمس القلم كثيراً فيه وهو يصل الحروف ببعضها البعض بمهارة اكتسبها من ممارسة هذا العمل لسنوات، فلا تظهر آثار الاتصال إلا لعين خبير مختص، ولهذا استمر نادر في الكتابة والرسم

لعشر دقائق كاملة، تكونت فيها قطرات العرق لتلمع فوق جبينه، ولم يحاول أن يكفكف عرقه طوال انشغاله بالرسم.

أعاد القلم إلى علبته وأحكم غلقها كما أحكم غلق قارورة الحبر الأحمر الدموي ثم تأمل الرقعة الجلدية وقد علت شفتيه ابتسامة ثقة وارتياح، لو تحركت معي من فوق رأس نادر واقتربنا من الرقعة لوجدنا عليها هذه النقوش:



الآن فقط مسح عرقه، جمع أدواته وأعادها إلى حيث كانت بداخل الخزانة وأحضر صندوقاً خشبياً وتركه على الطاولة، ذهب إلى الثلاجة الصغيرة وأخرج منها لفافة بلاستيكية سوداء، من الواضح أن هذا البراد معد على درجات حرارة منخفضة جداً، إذ يمكنك أن ترى الأبخرة الخفيفة تتصاعد من اللفافة من شدة برودتها.

جلس في مكانه المعتاد وتأكد من أن النقش قد جف فوق الرقعة الجلدية، أزاحها برفق بعيداً بعض الشيء بعدما ترك اللفافة البلاستيكية أمامه، شرع يفرغ محتويات الصندوق الخشبي ويرصصها بتتابع ونظام، هذه أدوات جراحة مختلفة، ثم قفازاً مطاطياً كان آخر

ما أخرجه من الصندوق، ارتداه وبدأ يفك اللفافة السوداء، هل رأيت معي ما كانت تحتويه؟ .. نعم هي قطة نافقة.

قطة نافقة محفوظة داخل البراد لمثل هذه الأعمال الحقيرة، ولأنه بدأ في التو... كجراح مقتدر بدأ يشج بطنها وكأنما سيجري لها جراحة علاجية، تناول الرقعة وطواها بطريقة غريبة وكأنها مظروف صغير، دسها بداخل كيس بلاستيكي شفاف ثم حشرها داخل جسد الهرة، ثم تحول إلى حائك محدود المهارة وهو يخيط جرحها الغائر بطريقة عشوائية تماماً، أمسك ملعقة مسطحة وأخذ بها جزء من الرماد فوق المبخرة وجعل يمسح به على الشق المخيط في رتابة مقززة.

كفّنَ الجثة في ثوبها البلاستيكي الأسود مجددا ثم دسها داخل حقيبته، لملم أدواته وأعادها إلى مكمنها ووقف أمام الطاولة وبدأ يتلو تعويذة خاصة ينادي بأسماء مبهمة وقد انقلبت عيناه إلى الوراء فلا يظهر إلا بياضهما:

"عنية مها كال ودنهش وأبرجيطيفورش وزوبعةالطيار، مسترط كهيوش وأخشاطهش بخاتم إبليس، مالكانوش وصبعانوش وكامال وكاليكا نونلت، احضر في التو واسمع وأطع وأنزل بآية بنت رجب السيناوي، لا راحة لها في ليل، فتيلة ششنت هنجنت"

اهتزت الإنارة للحظة ثم تردد صوت له صدى يقول:

"حضرت .. ولك على السمع والطاعة"

ثم اهتزت الإنارة مرة أخرى .. وتعالى في المعمل صوت ضحكات نادر وهي تتردد كأنما هي ضحكات تخرج من فيه الشيطان.

## (2)

آية جالسه أمام مرآتها في حجرتها الخاصة، تهذب شعرها الطويل مستخدمة مملس الشعر الكهربائي ذي المقبضين المصنوعين من مادة السيراميك في ملابس منزلية عادية، تقبض على بعض الشعيرات وتمررهما بين المقبضين لتجعل شلالات الليل المنسدلة على كتفيها أكثر نعومة، فهي تحب ذلك الشعور عندما يداعب الهواء خصلاتها الطويلة ويتخللها برفق، فتتباعد الشعيرات مرحة قبل أن تعود لتصطف بجوار شقيقاتها.

هذه النوعية من مملسات الشعر تصمم بحيث تكون مقابضها مفتوحة على الدوام ولا تنغلق إلا تحت تأثير ضغطت اليد، لكن آية تفاجأت أن المملس أمسك بشعرها ولا يود مغادرته، ويكاد يحرق شعرها الآن، تتخلل أنفها رائحة الحريق التي لا تبشر بخير.

حاولت تخليص رأسها من هذا الوحش الكهربي ذي الفكين الملتهبين دون جدوى، قامت من جلستها ممسكة المملس بيمناها ومدت اليسرى تحاول نزع المقبس من الجدار فوجدته يأبى في شمم، اضطربت وهي التي لم تتعرض لأي موقف يتطلب التصرف الفوري الحاسم، هي من تلك النوعية التي تؤمن بأن الزمان وحده كفيل بحل

أي مشكلة فلا داع للتعجل والتدخل لمحاولة العلاج، وها هي الآن تمسك في يدها فتيل يشعل شعيراتها بلا أدنى رحمة أو شفقة.

أصبحت رائحة الاحتراق جلية ففرت دمعة من عينها دون إذن منها وهي تتخيل ما سيحدث، لكن ما حدث لم يكن متوقع، فقد انفصل المملس أخيراً وتحررت رأسها، نظرت نحوه في يمينها فوجدته مقبضاً على بعض الخصل الطويلة من شعرها، اتسعت عيناها في رعب وهرعت تتطلع في المرآة، وكأن تلك الخصلات انصهرت وذابت عند المملس فانفصلت عن باقي شعرها، هنا ثارت الدموع مستغلة عدم قدرة جفنيها على حبسها لأكثر من هذا ففرت بغزارة لتغرق خديها وتلوثهما ببقايا الكحل الأسود في أهدابها.

ألقت المملس فتعلق بمقبسه وتدلى من الجدار، رفعت كفيها تتحسس تلك المنطقة التي تلفت للتو من أمواج شعرها وليتها ما فعلت، فكلما مررت كفها على رأسها وجدت الكثير من الخصلات يغادرها مودعا ويستقر في راحتها، تلاحقت أنفاسها وضربات قلبها ودخلا في سباق أيهما أسرع، وبكل عصبية الدنيا جعلت تجذب شعرها من مواضع شتى فيسقط بسهولة الثمار التى أينعت ومر أوان حصادها.

أزالت قدراً مرعباً من شعرها الذي كان قبل دقائق تاجها، وأصبح مظهرها مخيفاً مع تلك الأودية الحالكة التي رسمها الكحل المخلوط بالدموع في وجهها، تجمدت تحدق في مظهرها بعينين لا يمكن أن تتسعان لأكثر من هذا وإلا لغادرت مقلتيها، قرّبت وجهها أكثر من المرآة هناك شيء ما يتراقص في سواد عينيها، دنت أكثر حتى كادت تلامس المرآة، ورسمت أنفاسها كرة من البخار على السطح اللامع أمام أنفها الدقيق، حاولت أن تُثبت نظرها حتى ترى ما في عينها اليمنى تحديداً.

أصابها الهلع مما تراه، بداخل بؤبؤها ترى نفسها جالسة كما في جلسة التشهد في الصلاة، وخلفها يتقافز رجل أسود بلا ملامح وبلا تفاصيل، سلويت أسود لرجل في يده سيف طويل، يتوقف الرجل أخيراً عن القفز ويشير نحو جيدها بالسيف، ثم يرفعه عالياً ويهوي على عنقها بضربة قاتلة، أطلقت صرخة مدوية و...

فتحت عيناها وهي تتلفت حولها في فزع ورعب لا يخفيان على أحد، غارقة في عرق غزير، في نفس اللحظة التي اقتحمت فيها والدتها الحجرة بعدما جذب انتباهاً تلك الصرخة المدوية.

هرعت الأم تحتضن ابنتها التي من الواضح أنها كانت تعاني كابوساً بغيضاً، ومررت كفها على رأسها وهي تتمتم بآيات من كتاب الله الكريم، فرفعت آية يدها تتحسس شعر رأسها وتطمئن من أن كل شيء على ما يرام.

تجاوبت مع كلمات والدتها وبدأت تتعوذ من الشيطان وتردد بعض الأدعية، ووافقتها على أن تدخل إلى الحمام تغسل وجهها ريثما تجهز لها ملابس نظيفة لتستبدل بها ملابسها الغارقة في العرق وكأنما نامت تحت غطاء ثقيل في منتصف نهار أغسطس.

غادرت فراشها بخطوات ثقيلة وعقلها يراجع تفاصيل الكابوس بإلحاح عجيب، دلفت إلى الحمام وغسلت وجهها قبل أن تمرر بعض الماء على رأسها لعل برودة الماء تلطف ارتفاع حرارة جسدها المباغتة، ثم وقفت تتأمل ملامحها في المرآة وكأنها تتأكد من أن كل شيء في موضعه، سرت ارتعاشة خفيفة في أناملها وهي تدقق النظر في عينيها، تجمدت للحظات تراقب عينيها الدامعتين حتى تأكدت أن كل شيء على ما يرام، زفرت في ضيق فرغم أنها لم تلاحظ أي شيء مريب إلا أنها منقبضة الصدر وجلة.

استدارت لتغادر فتعثرت بشكل عجيب لتسقط أرضاً، الرياح دائما ما تأتي بما لا تشتهي السفن، كان تعثرها وكأنما دفعتها يد خفية بغتة لتجد نفسها تسقط فوق حوض الاستحمام، وتتجه رأسها بلا تردد صوب زاوته المدببة الحادة.

بدوي مكتوم وقع السقوط فأطلقت صرخة استغاثة وألم، نار أشعلها شيء ما في خدها الأيمن، تحسسته بصعوبة وبأصابع مرتجفة لتشعر بسائل حار يلامس أناملها الراجفة، رفعت كفها أمام عينها وصرخت مجدداً حين رأت الدماء وقد صبعت أصابعها باللون الأحمر، طرقت أمها الباب وهي تناديها قبل أن تفتح الباب وتدخل لتطلق شهقة فزع وهي تضرب صدرها براحتها.

## (3)

غربت الشمس، داخل حجرة آية الممددة على فراشها جلست ياسمين، ابنة خالها وصديقتها المقربة، هما كالأختين في الحقيقة، عندما علمت بما أصابها ليلة الأمس هرعت لتطمئن عليها، روت لها آية تفاصيل ما مرت به، ذلك الكابوس البغيض، ثم سقوطها المباغت، هلع والدتها واتصالها أبيها الذي ترك ما يشغله وهرع ليحملها إلى المشفى، جرحها الذي تكفلت به تسع غرز طبية، وسيتطلب الأمر جراحة تجميلية ليزيل الندبة التي وُسمت بها، وكيف أن والدها قضى معها النهار كله تقريباً حتى اطمئن عليها ثم ذهب إلى عمله قبل قليل، أختها التي رافقتها طيلة النهار قبل أن تعود إلى بيتها وأسرتها.

ياسمين المرحة والتي يحبها كل أفراد العائلة بلا استثناء شعرت بأن ثمة ما يربط بين حادثة سقوط آية وبين كابوسها، بحثت في عقلها بغير هدى عن ذلك الرابط، صرحت بما تفكر به إلى صديقتها جريحة الوجه، فلم تَقْنَع الأخيرة بهذه الفكرة رغم أن نفسها مالت وبشدة لتصديقها، لكن انقطاع الأسباب منع العقل من القبول.

اعتدلت ياسمين بجسدها الممتلئ وهي تربت على ركبة آية قائلة:

"صدقيني يا آية الأمران متصلان بصلة ما، لا أخفيك أنني شعرت بالانقباض حين ولجت إلى غرفتك"

قطبت آية حاجبيها وسألتها:

"ماذا تقصدين؟"

مدت ياسمين ذراعيها إلى خلف ظهرها واتكأت على راحتيها ثم قالت:

"أخبرت أنني لا أجد تفسير لما يراودني من شك .. أنت لم تصابي برؤية الكوابيس من قبل، فلماذا الآن؟! ... وبعدها تتعرضين لهذا الحادث"

عقدت آية ساعديها أمام صدرها وهزت كتفيها وهي تقول:

"ربما هي مجرد صدفة"

مالت ياسمين للأمام واكتست ملامحها بالجدية، تكلمت بطريقة العالمة ببواطن الامور:

"لقد قصصتِ عليَّ تفاصيل كابوسك وكأنك رأيته للتو .. في الغالب لا أحد يتذكر كل التفاصيل بهذه الدقة، وإذا أخذنا باعتبار أن هذه هي المرة الأولى التي تختبرين فيها كابوساً فيمكنني تأكيد أن الأمر به سراً ما".

ظهرت الحيرة على ملامح آية وهي تقول:

"لا أعرف يا ياسمين .. لكني أذكر تفاصيل الكابوس وكأنني عِشْتهُ بالفعل"

تحركت لتغادر فراشها في ضجر واضح، سألَتها ياسمين:

"إلى أين؟"

قالت وهي تتحرك إلى مرآتها:

"لقد مللت رقدتي هذه"

وقفت تتأمل جرحاً يستتر خلف ضمادة بيضاء كبيرة تغطي نصف وجهها الأيمن، وفي نفسها ألم وحسرة وهى تتخيل تلك الندبة التي وُسمت بها، وتفكر في جراحة التجميل التي نصحوا بإجرائها، بأنامل مترددة حاولت لمس الضمادة، رأتها ياسمين وشعرت بما يعتمل في نفسها، فقامت والتحقت بها أمام المرآة وربتت على كتفها ثم قالت مواسية:

"لا تجزعِ يا حبيبتي .. ستعود الأمور لنصابها"

ثم غمزت بعينها وقالت مداعبة:

"المهم أن تجري جرحتك التجميلية بسرعة قبل ظهور العريس المنتظر"

ابتسمت آية وقالت:

"لا يشغل بالك سوى الشباب والزواج"

رفعت ياسمين رأسها وقالت بطريقة مسرحية:

"وهل هناك أجمل من ذلك في الحياة يا صديقتي؟ آه لو يحررونا من قيدونا بعض الشيء ...."

قاطعتها آية بسرعة:

"كنتِ انحرفتِ ولا شك"

ضحكت الفتاتان بمرح وضربا كفيهما ببعض، ثم تناولت ياسمين أحمر الشفاه وهي تُصر على أن تُزين آية التي تقاومها في مرح طفولي، نجحت محاولات ياسمين في إخراج صديقتها من حالة الوجل والقلق بتصرفاتها المرحة، لكن للأسف لم يستمر الأمر لدقائق.

نظرة خاطفة من آية إلى المرآة جعلتها تستدير للخلف وهي تطلق شهقة خوف وفزع، رأت في الصورة المنعكسة على سطح المرآة وكأن الجدار خلفها يتشكل ويبرز للخارج في شكل رأس بشرية وكفين، لكنها لما استدارت تواجه الجدار لم تر شيئا البتة، نقلت ياسمين نظرها بين آية والجدار في عدم فهم ثم سألتها:

"ماذا هناك؟"

أسقط في يدي آية، هل ما رأته حقيقة؟

هل تخبر ياسمين؟

وهل ستصدقها إن أخبرتها؟

ألحت ياسمين بالسؤال:

"أخبريني يا آية ماذا هناك؟ لا تخفي عني شيئاً"

"لا شيء يا ياسمين .. لقد تخيلت أن هناك شيئاً ما فوق الجدار .. يبدو أن المرآة تحتاج إلى تنظيف"

نسيت ياسمين أن مهمتها كانت إخراج صديقتها من حالة الوجل التي ألمت بها، واندفعت تقول بعصبية:

"ألم أقل لكِ أن هناك أمراً غامضاً فيما يحدث لكِ .. الكابوس ارتبط بالمرآة والآن تخدعك نفس المرآة .. عليكِ تصديقي يا فتاة"

تحركت آية عائدة لتجلس على حافة الفراش في قلق، وهي تلتف حولها تترقب شيئاً لا تدرك كنهه، ارتفعت درجة الحرارة بلا مقدمات وتعرقت الفتاتين، همت ياسمين بالحركة لتجلس بجوار صديقتها، لكنها توقفت بلا حراك مصدومة، اتسعت عيناها وتدلى فكها حتى أنك تظنه سينفصل عن رأسها.

أمام عينيها الجاحظتين فوجئت بآية تندفع بقوة إلى الخلف، وكأنها ألقت بنفسها بعنف فوق الفراش، ثم أخذت في التحرك بعصبية وهستيرية وهي تتلوى على نفسها وتطلق صرخات متلاحقة بلا انقطاع، وهي تقبض على كل ما تصل إليه يديها.

لم تعرف آية ما الذي يحدث، فقد وجدت نفسها تتراجع إثر دفعة قوية من أياد خفية كثيرة، وكأن أحدهم يمسك بكاحليها في قوة ليمنعها من الهرب، أنياب صغيرة تُغرس في جسدها وكأن ثمة حيوانات مفترسة تحاول تمزيق بدنها.

تحررت ياسمين من جمودها اللحظي، اندفعت تمسك بكتفي آية وهي تهتف باسمها وتحاول تثبيتها بلا طائل، ثم ارتفع صوت طرقات متتابعة على باب الحجرة ومحاولة لفتحه دون استجابة، ومن خلف الباب صوت والدة آية تهتف ملتاعة، لم تجد ياسمين ما تفعله وكاد عقلها يُسمع له صوت من قوة وسرعة تفكيرها، لم تجد بُد من احتضان آية بقوة، وبدأت تتعوذ بالله من الشيطان، وفي لحظة واحدة هدأت أخيراً، واستجاب الباب وانفتح لتدخل الأم وتركض نحو ابنتها.

تراجعت ياسمين تفسح مجال لعمتها وهي تحدق فيهما مبهوتة، هلعت الأم لما رأت الضمادة البيضاء وقد اصطبغت ببعض الدم، وظلت تقول عبارات كثيرة عن الاتصال بوالدها وإحضار طبيب خاص وأشياء من هذا القبيل.

أما آية فقد أجهشت بالبكاء ولم تكن تسمع ما تقوله أمها.

## (4)

طوال نصف ساعة لم تترك الأم ابنتها، تتلو ما تحفظ من القرآن الكريم وهي تمرر راحتيها على رأس ابنتها مع إكثارها للدعاء، أصاب الارتباك ياسمين التي لم تفهم ما حدث ولم تختبر أمر كهذا في سنوات عمرها مطلقاً.

هدأت آية واستردت رباطة جأشها وإن لم يفارقها الترقب والوجل من المجهول، وبصعوبة استخرجت منها والدتها تفاصيل ما مرت به، كانت تنقل بصرها بين ابنتها وابنة أخيها فتومأ الأخيرة مصدقة على كلام آية، لم يكن ما تقولوه يحمل من المعاني سوى واحد فقط، ألا وهو أن هناك شيء خارج الطبيعة يطاردها، وهذا ما توقعته الأم بحكم طبيعة نشأتها والتي جعلها تصادف مثل هذه الأحداث فيما مضى.

تركت آية والدتها تفحص جسمها فلم تجد أي أثر لتلك العضات التي ذكرتها هي، شعرت ياسمين ببعض الطمأنينة لنتيجة هذا الفحص، غير أن هذه النتيجة أصابت الأم بمزيد من القلق، قلق من يعلم ما يخفى، حاولت أن تطمئن بنتها ببعض الكلمات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، أخبرتها بأنها ستتصل بوالدها عبر الهاتف وسيجد لها حلاً سريعاً ونهائياً ثم طلب من ياسمين أن تبقى معها إلى أن تنتهي من المكالمة الهاتفية، همت بالخروج إلى الصالة لتستخدم الهاتف

الثابت في الاتصال برجب، فهي لا تتعامل مع أجهزة الهاتف المحمولة، تحركت بضعة خطوات وكادت تصل إلى باب الحجرة، وبلا استئذان أظلمت الحجرة تماماً.

شهقة المفاجأة خرجت من الأم وياسمين في نفس الآن تقريباً، في حين لم يصدر عن آية أي ردة فعل، فصاحت الأم بلهفة:

"آية!"

أتاها الجواب: "أنا هنا يا أمي"

تعوذت الأمّ كثيراً وهي تلتمس الطريق وصولاً لباب الحجرة، خطوات معدودة ثم وصلت السيدة إلى الباب أخيراً، وقد بدأ القلق الممزوج بالرهبة يسيطر عليها، فهذا الظلام لا مثيل له، تحولت الحجرة في لحظة واحدة إلى كتلة من الظلام الحالك الذي لا يخترقه أي شعاع للضوء، ظلام غير طبيعي يكفيها لتتوقع أن هناك أمراً ما سيحدث.

عادت لتلاوة القرآن وهي تتحسس الباب بيدها حتى اهتدت إلى المقبض فأدارته لتتوقف عن التلاوة تماماً ويصيبها رعب حقيقي هذه المرة، الباب لا يتجاوب مع محاولاتها لفتحه، كررت المحاولة أكثر من مرة دون أن تتبدل النتيجة، ومع صوت المقبض الذي تردد في الحجرة اضطرت ياسمين لتتساءل في قلق:

"ماذا هناك يا عمتاه؟"

أجابت وهي تتصنع الثقة:

"يبدو أن المقبض عالق أو شيء من هذا القبيل"

ياسمين:

"عجباً لهذه الظلمة! أنا لا أرى كف يدي، وهذا الرتاج الذي قرر أن يصاب بالعطل في هذا التوقيت تحديداً ليكمل حظنا العاثر"

استأنفت الأم محاولاتها مع مقبض الباب وهي تقول:

"لنأمل ألا يستمر انقطاع التيار الكهربي لوقت طويل"

قالت ياسمين:

"أرأيت يا عمتي لو كنت تحملين هاتف محمول الآن لاستخدمناه ليبدد بعض هذا الظلام"

سألتها:

"ولماذا لم تستخدمي هاتفك أنتِ إذن؟"

أجابت:

"الهاتف في حقيبة يدي ولقد تركتها بجوار الفراش .. أنا أخشى التحرك في هذا الظلام حتى لا يصدمني شيء"

قالت الأم بسرعة:

"تحركي يا ابنة أخي وساعدينا بالله عليك"

"حسناً .. حسنا"

قالتها وبدأت تتحرك بخطوات ضيقة زاحفة وهي تتمتم بأدعية كثيرة، كان من الواضح أنها ستستغرق دهراً لتصل إلى حقيبتها. شعرت بها عمتها رغم أنها لا تستطيع رؤيتها أو رؤية أي شيء فحثتها على الإسراع وعدم التردد. وتحركت هي الأخرى بحذر صوب الفراش. كانت تتحرك ببطء يفوق بطء حركة ياسمين التي تشجعت بعض الشيء ووصلت إلى الفراش فانحنت تمد يدها باحثة عن حقيبتها. وأخيراً وجدتها فصاحت بفرح:

"لقد وجدتها!"

بعصبية بحثت داخل حقيبتها، لم يكن الوصول للهاتف عسيراً رغم الظلام، أخرجت الهاتف وألقت بالحقيبة أرضاً بلا اكتراث، ضغطت زر الطاقة فأضاءت الشاشة وفي لحظات قامت بتشغيل مصباح وميض كاميرا التصوير المدمجة ليخرج ضوؤه الأبيض الساطع ويسمح للعيون ببعض الرؤية، صوبته ناحية عمتها التي هرعت إليها واختطفت الهاتف من يدها وهي تقول:

"ناوليني هذا الهاتف"

سلّطت الهاتف على الفراش لتضرب صدرها في حسرة ولوعة في ذات اللحظة التي شهقت فيها ياسمين وهي تصيح بفزع:

"آية!"

ثم أطابهما وجوم وجمود مفاجئ، فأمام عيونهم الذاهلة كان الفراش خالياً، وقد اختفت آية من فوقه.

**(5)**

اختفت آية من فوق فراشها، تجمدت ياسمين وقد أصابها كل رعب وفزع الدنيا، أما والدة آية فقد انسحق فؤادها بداخل قبضة فولاذية خرجت لتوها من براد حرارته أقل من الصفر بكثير، سالت دموعها دون أن تشعر وعجز لسانها عن الكلام.

استردت ياسمين إدراكها وصاحت:

"أين أنتِ يا آية؟"

لم تتلق أي جواب أو إشارة من آية، التفتت حولها باضطراب لكن قلة الإضاءة لم تسمح لها بالرؤية، فانتزعت الهاتف من يد عمتها المتحجرة وبدأت تبحث في الحجرة مستعينة بضوء الهاتف قبل أن تتوقف وهي تركز الضوء على واحد من الجدران، مدت يدها تهز عمتها وهي تقول بصوت جرحه الخوف:

"عمتاه .. انظري"

استدارت الأم ببطء لتنظر إلى ما تنظر إليه ابنة أخيها، وقعت عينيها على الجدار فصرخت باسم ابنتها في لوعة.

أمام عينيها الغارقتين في الدموع كانت آية ملتصقة بالجدار وذراعيها مفرودتين بمحاذاة كتفيها، عيناها بيضاء بعدما دارتا في

محجريهما، يسيل من طرفي شفتيها ريم أبيض وكأن روحها تتغرغر في جوفها، شحب لونها بطريقة عجيبة، تكاد تتحول إلى اللون الرمادي، الغريب أن قدماها لا تلامسان الأرض، بل كانت على ارتفاع يقارب نصف المتر فوق الأرضية، ترتجف بشدة بلا سبب.

اندفعت ياسمين صوبها محاولة انتشالها من فوق الجدار، كادت تصل إليها فمدت يده الخالية لتمسك بتلابيبها، فاللحظة ذاتها تحركت آية، تحركت بطريقة جعلت ياسمين وعمتها تصرخان في فزع.

في لحظة واحدة زحفت آية وظهرها ملاصق للجدار، زفت للأعلى بسرعة رهيبة، بالأحرى تحركت وكأن شيئا ما يحركها دون إرادة منها، المخيف أنها تحركت للأعلى، وفي لحظة واحدة أصبحت ملتصقة إلى السقف .. نعم إلى السقف، وكأنها تحررت من جاذبية الأرض لها.

لم تتوقف الصرخات، بل ازدادت، ورفعت كل منهما ذراعيها لتحمي وجهها فقد بدأ الزجاج الموجود في الحجرة يتحطم من تلقاء نفسه، يتحطم ويندفع في كل مكان، المرآة الكبيرة، المرايا الصغيرة على أبواب خزانة الملابس، قوارير العطر الصغيرة، زجاج النافذة وحتى زجاج مصابيح الإنارة، تهشم كل الزجاج بلا استثناء، برغم تحطم زجاج النافذة لم يتبدد الظلام.

بوجل واضطراب تنقل ياسمين الضوء في كل مكان، سقط الضوء على وجه عمتها لتتصلب في هلع، فقد كان وجهها مغطى بالدم، وكذلك ساعداها، وهي تطلق أنات الألم في وهن:

"عمتاه!"

قالتها ياسمين بصوت مرتجف، فأجابتها بضعف:

"دعك مني .. وجهي مصباح هاتفك إلى آية"

نفذت ياسمين ما أُمِرَت به، وجدت السقف خالياً وقد اختفت آية من هناك، فعادت تجوب بالضوء في أرجاء الحجرة باحتة عنها، وفي نفس الوقت بدأت الأم تتعوذ بالله من الشيطان بصوت منهك قبل أن تتلو أية الكرسي وقد تخلل النحيب صوتها وذاب فيه كما يذوب السكر في الماء.

ارتفعت زمجرة غريبة من أحد الأركان، سلطت ياسمين الضوء على هذا الركن على الفور، وفي لحظة واحدة اندفعت آية خارج هذا الركن صوب والدتها فصدمتها وسقطتا معاً.

جثت فوق أمها وهي تطبق على عنقها بقوة كبيرة وتعتصره في إصرار قاتل، صرخت بها ياسمين لكنها لم تتوقف، حاولت الأم المقاومة لكن جسدها المثخن لم يساعدها كثيراً.

هرعت ياسمين نحوها وأمسكتها من وسطتها تجذبها من فوق والدتها المسكينة، نجحت في جذبها، فتوقفت آية عن محاولة خنق والدتها وقامت وهي تستدير ببطء مرعب لتواجه ياسمين التي سلطت الضوء على وجهها، الغريب أن الضوء المبهر لم يردعها أو يشوشها، وبقوة عاتية هوت بصفعة مفاجئة على وجهها.

قوة الصفعة جعلت ياسمين تدور نصف دورة وتسقط فوق السرير وبجوارها هاتفها، عادت آية لتجثو فوق والدتها وبات لها هدف واحد .. القضاء على السيدة المثخنة بالجراح، لثواني لم تصدق ياسمين ما تفعله ابنة عمتها، جعلت تفتش لتلك الأفعال والأحداث عن سبب منطقي فلم تجد، هو سبب غير منطقي ولا شك، هناك شيء ما يسيطر على آية، عليها أن تفعل شيء لتنقذ عمتها قبل فوات الأوان.

استجمعت قواها وتناولت هاتفها، وجهته ناحية آية فوجدتها عادت تعتصر عنق والدتها التي مازالت تقاوم، سحبت نفساً عميقاً ثم

اندفعت بكل ما تبقى لديها من قوة لتصطدم بآية وتسقطان بدوي عنيف.

مع دفعة ياسمين العنيفة لآية ضربت الأخيرة الحائط برأسها في عنف، ففر وعيها هارباً في لحظة واحدة، عندها تبدد الظلام، تلاشى في طرفة عين كما حل تماماً، عادت الإضاءة، هل سبق وأخبرتك أن كل الزجاج تهشم بما في ذلك زجاج المصابيح؟ لقد فعلت بالفعل، الأمر العجيب أن الحجرة سليمة ولم يتحطم زجاجها ولا حتى شظية صغيرة في أي مكان، كل شيء كما هو.

ألقت ياسمين نظرة على آية الغائبة عن الوعي، ثم تحاملت وزحفت إلى عمتها، ساعدتها لكي تعتدل جالسة قبل أن تحتضنها دون أن تتلفظ بحرف واحد، من فوق كتفها ألقت الأم نظرة تحمل حزن الدنيا وحسرتها على ابنتها، ثم انخرطت في بكاء شديد.

# الفصل السادس

# العروس

## (1)

في ذلك الجزء المستتر خلف الستائر الثقيلة من مكتب نادر، جلس في مقابل شيصبان المتجسد في هيئة بشرية، يقص عليه ما فعله بآية وكيف أنها ترى ما لا تطيق منذ أسبوع كامل، ليثبت له ولناصورى بأنه على عهده معهم ولم يُغيره شيء.

استمع شيصبان لسرد نادر ولم يقاطعه حتى انتهى الأخير من روايته وارتسمت على شفتيه ابتسامة زهو وفخر بما قدم من أفعال، فقال شيصبان بملامح جامدة:

"ربما لم يكن هناك داع لكل هذا .. لم يطلب منك سيدك ناصورى أن تتعرض لهذه الفتاة"

قال نادر بسرعة:

"ولم ينهني أيضاً .. أردت التأكيد على عدم اهتمامي بها"

شيصبان:

"كن صادقاً يا ابن النجاتي .. هناك هدف في عقلك تود الوصول إليه"

**صمت نادر للحظات ثم قال:**

**"أنا أقول الحقيقة .. أردت التأكيد على عدم اهتمامي بها لنفسي قبل أي شخص آخر .. فكرت لبعض الوقت كيف أنني انسقت وراء هوى نفسي ولو للحظة، كان لابد لي من فعل ما فعلته"**

**لم تتغير ملامح شيصبان أو يبدو عليه الانفعال، وكأن هذا هو ديدنهم حين يتجسدون كالبشر، فلا يمكنك استنباط ما الذي يعتمل خلف القناع البشري الزائف هذا، قال شيصبان المحافظ على تعابير التمثال:**

**"أنت فعلت ما فعلت لنفسك ولأغراضك الخاصة .. ولا دخل لنا بهذا الأمر"**

**قطب نادر حاجبيه في قلق، عبارة شيصبان الأخيرة هذه لا تحمل الخير بين ثناياها، ترى لماذا يصر على عدم مسئوليته هو أو ناصورى؟ صحيح أن ما فعله كان ليقوم نفسه التي كادت تميل وتلين، لكن في نفس الوقت من المفترض أن يرضي هذا الفعل سادته لا أن يتنصلوا منه بهذه الطريقة، حاول استدراج الجني المتجسد وقرر مناورته فقال:**

**"ربما أقوم بتعويذة جديدة تكون أثقل من الحالية .. أتتفق معي؟"**

**مال شيصبان للأمام قليلاً حتى يُكسب ما سيقوله أهمية قصوى ثم قال:**

**"لو قبلت نصيحتي فلا داع لأي مما تفكر به .. واكتف بما فعلت إلى الآن"**

**ازداد القلق في أعماق نادر، وتصاعد إلى خارج جسده مع قطرات العرق التي تندى بها جبينه، هل أقدم على خطأ بانتقامه من آية؟ لم يمهله شيصبان كثيراً ليفكر حين قاطعه قائلاً:**

"دعك من هراء ابنة السناوي هذا ولتستمع لما لدي"

نظر إليه نادر بنظرة ريبة وسأله:

"وماذا هناك هذه المرة؟"

لم يُجيب شيصبان وإنما بادله سؤالاً بسؤال:

"أما زلت راغباً في الزواج؟"

لم يكن نادر ليتوقع مثل هذا السؤال فردد في دهشة حقيقية:

"الزواج؟!"

أومأ شيصبان موافقاً دون أن يظهر أي جديد في ملامحه المتحجرة، ضحك نادر وقال ساخراً:

"وهل عندك عروس مناسبة لي؟"

أتاه الرد عجيباً:

"كُلنا ننفذ أوامر سيدي ناصورى"

هز نادر رأسه وقال:

"لم أفهم .. هات ما عندك مباشرة"

"الأمر واضح .. لقد وافق سيدي ناصورى على مسألة زواجك .. واختار لك العروس المناسبة أيضاً"

فكر نادر فيما قاله شيصبان قليلاً، ثم تصل عقله إلى فكرة ما جعلت عينيه تتسعان وهو يسأل:

"هل ينوي تزويجي بواحدة منكم"

أتاه الرد سريعا:

"أي حمق هذا الذي تفكر به يا ابن النجاتي؟ أنت لست أهلاً لتتزوج منا أيها الطيني .. ستتزوج بواحدة من بنات جنسك"

ارتبك نادر فقال بعصبية:

"أفرغ ما في جوفك كله دفعة واحدة ولا تتركني لظنوني"

قال شيصبان بلهجة حادة:

"أخبرتك أن السيد وافق على زواجك وسيحدد الموعد في القريب العاجل .. ولكنه سيمنحك حرية اختيار العروس من بين ثلاث فتيات يناسبن ما يريده العظيم ناصورى .. وستكون زيجة خاصة"

سأل نادر في حيرة:

"ومن هن أولئك الثلاثة؟"

صمت شيصبان للحظات قبل أن يقول:

"اختر منهن واحدة، غداً في نفس الموعد سأحضر لأعرف قرارك، أما الفتيات فسيأتينك الآن .. قابلهن واختر واحدة فقط ودع الباقي لنا"

وقبل أن يتفوه نادر بحرف جديد تمايه جسد شيصبان وتداخلت ألوانه ثم اختفى تماماً، وفي الحظة التالية سمع صوت طرقات على باب حجرته، أسرع يغادر مكمنه ويعود للحجرة العادية ويقول وهو يجلس خلف مكتبه:

"ادخل يا سيد"

فتح سيد الباب بقدر ضئيل يكفي لمرور جسمه الناحل ووقف بالباب وقال:

"سيدي .. هناك ثلاث فتيات بالخارج يقولون بأن لديهم موعداً لمقابلتك"

أومأ برأسه موافقاً وقال:

"أدخلهن يا سيد"

كانت مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق، تصارعت في رأسه الأسئلة في عناد وإصرار، من هن هؤلاء الفتيات؟

لماذا هن بالتحديد؟

ولماذا يختار له ناصورى زوجة؟

شعر بأن هذا الأمر لا ينطوي على خير، لكن ما بيده حيلة، لا يمكنه الرفض، فلينظر في أمر الثلاث فتيات وينتقي واحدة لينتظر بعدها ما الذي يدبره ناصورى.

## (2)

ودعت أسرة رجب هدوءها واستقرارها واستقبلت غير مرحبة ضيوفاً ثقيلي الحضور، مجموعة زائرين بصفة مستمرة من القلق، عدم الأمان والاضطراب، ووفي مقدمتهم الرعب والخوف.

انقلبت الأمور في ذلك البيت الصغير، أصبح المكان أشبه بمعسكرات فرق الكشافة، وأفراد الأسرة يسعون لأمر واحد في نوبات ووردیات منتظمة، ألا وهو محاولة حماية آية أو بمعنى أدق محاولة تقليل ما يصيبها إلى أقل حد ممكن.

فترة صباحية تكون آية في مرافقة أختها وابنة خالها وتعمل هذه المجموعة طوال النهار إلى وقت العصر، هي بالطبع المجموعة الأسعد التي لا تواجه مشكلة من أي نوع وأغلب الوقت يجلسان يستمعان لما صار في الليلة السابقة، الفترة المسائية والتي تبدأ من بعد المغرب إلى الفجر فتؤول المسئولية فيها إلى رجب نفسه الذي قصر عمله على الفتر الصباحية فقط، حقيقة الأمر لم يكن وجوده ليوقف ما يُنزَل بابنته أو يقلله، لكن وجوده كان يعطيها شيئاً من الثقة، فالبنت لا تخشى شيئاً أبداً وهي في صحبه والدها، العامل المشترك والعنصر دائم المواظبة على الوجود قرب آية هو والدتها بالطبع، فهي لا تتركها إلا لتقوم بمهمات البيت وشؤونه اليومية.

نحن الآن في حجرة آية في الليلة السابقة للقاء نادر وشيصبان وموضوع الفتيات الثلاث، آية النائمة في وداعة، تبدل حالها وتغير، نادراً ما تقترب من الطعام، فلا تأكل إلا لماماً بعدما تكرهها والدتها على تناول بعض اللقيمات، فتراها وقد شحب لونها وذبلت زهرة حياتها، فقدت الكثير من وزنها كمن خضعت لحمية قاسية منذ وقت بعيد، نائمة على جانبها الأيمن وتولي والديها ظهرها وهما يجلسان متجاورين على الفراش بجوارها.

تكلم رجب بلهجة تفوح منها رائح العاجز من لا حيلة له:

"علينا الانتظار حتى يوم الغد فقط"

قالت الأم ملتاعة:

"أكاد أفقد عقلي يا رجب .. ست ليالي ذُقنا فيها الأمرّين .. نرى ابنتنا في كل ليلة تتعذب بألف طريقة وطريقة، ولا نقدر على فعل شيء البتة"

حاول مواساة زوجته ورفع معنوياتها بعض الشيء وقال:

"نحن لم نُقصّر في حمايتها .. انظرِي إلى جروح ساعديك والكدمات في جسدك .. تذكرِي السوط الذي كاد يشقني إلى نصفين ليلة أمس وتمكنت من النجاة منه بأعجوبة ليحفر في ظهري نهراً دامياً .. نحن نبذل ما في وسعنا لكن الأمر أكبر مما يمكننا التعامل معه .. فقط علينا الانتظار إلى الغد"

أطرقت برأسها ولم تعقب، فوضع ذراعه على كتفها وقال:

"لقد حصلتُ على رقم الشيخ مهدي من علي أخي وقمت بالاتصال به، وأكد لي أنه قام بحجز تذكرة على متن الطائرة التي ستصل إلى

القاهرة في عصر الغد، بعدما اعتذر لمرافقيه في رحلة العمرة التي التحق بها ولهذا لم يسعفنا طوال الأيام الماضية"

رفعت الزوجة نظرها إلى زوجها وسألته:

"وهل سيأتي إلى هنا مباشرة؟"

أومأ رجب وهو يقول:

"لا تقلقي .. لقد رتب الأمر معه وسيجد سيارة خاصة في انتظاره في المطار لتُقلّه إلى هنا مباشرة"

قالت:

"أدعو الله أن يجعل خلاصنا على يديه"

رجب:

"إن شاء الله .. هذا الرجل له مقام خاص وجند سخرها الله بين يديه، بالتأكيد يقدر على وضع حد لهذه المعاناة.

قالت الزوجة:

"يا رب"

تناول رجب هاتفه المحمول وتعامل معه في سرعة ببضعة لمسات سريعة فارتفع صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد[10] يشدو بآيات

---

([10]) الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد، الحنجرة الذهبية، واحد من أشهر القراء على مستوى العالم أجمع، ولد في قرية المراعزة التابعة لمدينة أرمنت في محافظة قنا عام 1927م في أسرة بها الأب والجد والإخوة ممن أتموا حفظ كتاب الله كاملا، حفظ القرآن في كتّاب الشيخ الأمير وأتمه في العاشرة من عمره وتدرب على القراءات وتلقى علوم القرآن من الشيخ محمد سليم، نال الكثير من الأوسمة في مصر وسوريا ولبنان وماليزيا والسنغال والمغرب، ولقي ربه في عام 1988م بعد معاناة مع مرض السكر، حقيقة الأمر فإن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد لا يمكن تعريفه في مجرد هامش أو صفحات، وربما يعجز كتاب كامل عن احتواء قصته وسيرته.

من سورة الكهف، وضع الهاتف على الوسادة بجوار رأس آية، لكن الهاتف صمت فجأة وتوقف عن العمل، تناوله رجب وأعاد تشغيله ثم أعاد تشغيل مقطع الصوت من جديد ثم تركه كما كان بجوار ابنته النائمة، بضع لحظات من التلاوة الخاشعة قبل أن يعاود الهاتف جنونه ويتوقف عن العمل، تبادل الزوجان نظرة سريعة وقالت الزوجة:

-"ربما كان يحتاج إلى إعادة شحن بطاريته"

هز رجب رأسه نافياً، ثم قال وهو يعاود تشغيل الهاتف وتشغيل مقطع التلاوة:

"كلا .. البطارية ممتلئة وقمت بشحنها قبل قليل، ولقد طلبت من أحد العاملين عندي في الصباح أن يقوم بتحميل القرآن كاملاً بصوت الشيخ عبد الباسط لأتركه يتلو كلام الله طوال الليل لعل الله يصرف عنا بعض مما نحن فيه"

مع انتهاءه من عبارته كان قد أعاد تشغيل هاتفه مجددا، لمسات سريعة على شاشته أعادة صوت الشيخ بتلاوته المميزة لسورة الكهف، هذه المرة لم يضع هاتفه بجوار ابنته مباشرة، بل ظل ممسكاً به محدقاً فيه منتظراً التأكد من عدم توقفه عن العمل من جديد.

في لحظة واحدة انفجر الهاتف في يد رجب اليمنى، أطلق صرخة ألم وهو يلقى بالهاتف بعيداً، نظر إلى يده الدامية في فزع وأطلقت زوجته العنان للسانها ليتعوذ بالله من الشيطان كما قامت فزعة تعبث بالأدراج والرفوف حتى عادت وفي يدها قطعة قماش نظيفة وشرعت تضمد بها كف زوجها وقد اغرورقت عيناها بالدموع في حسرة.

أما رجب فقد ضغط أسنانه بقوة وقطب حاجبيه، وفي أعماقه يعتمل شعور غريب، مزيج عجيب من الألم والغضب واليأس، ألم في يمناه، غضب لأنه يعلم بالتجربة أن الأحداث الحقيقة تبدأ بعد صلاة العشاء، ويأس لأنه لا يقدر على منع ما هو قادم.

راودته فكرة قدوم الشيخ مهدي، عندما اتصل بأخيه علي قبل ثلاثة أيام ليطلب مساعدة الشيخ، أخبره أخوه بأن الرجل غادر إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك العمرة منذ أيام، يتوقع قدومه بعد أسبوع آخر، فطلب من أخيه رقم الشيخ ليتواصل معه بنفسه، وهو ما كان بالفعل، ولما علم الشيخ بما يمر به هو وأسرته قرر أن يعود فوراً إلى القاهرة مباشرة، وسيصل عصر الغد.

عليهم أن يتحملوا هذه الليلة بأي وسيلة.

فهل ستمر عليهم ليلتهم كما مرت الليالي السابقة؟

هذا ما يرجوه رجب السيناوي.

## (3)

نعود إلى المكان والزمان حيث كُنا، في مكتب نادر الخاص، وقف سيد أمام باب حجرة سيده وطرقه ثلاثاً قبل أن يفتحه ويشير بيده بما يعني أن الدخول إلى المكتب مسموح، فدخلت إلى المشهد فتيات ثلاث يسرن في تتابع وكأنهن في طابور مدرسي، دخلن إلى المكتب فأحكم سيد الباب خلفهن وهو تلفت حوله في حذر، ثم أقدم على فعلٍ غريب، فقد ألصق أذنه بالباب ليسترق السمع.

دعنا نعبر الجدار لندخل إلى الحجرة ولا نضيع وقتنا مع سيد المتلصص، ها هم أولاء يجلسون، نادر خلف مكتبه والفتيات أمام المكتب عن يمينه ويساره، بحيث كانت اثنتان إلى يمينه والثالثة منفردة على يساره، كان لقاءً عجيباً وغريباً على كافة الأصعدة، في الماضي إذا بحث الرجل عن زوجة كان أقصى ما يحدث هو أن يرى عدة صور لفتيات في سن مناسبة للزواج فيختار منهن واحدة، كانت هناك مهنة شهيرة هي (الخاطبة) التي تحاول التوفيق بين الطرفين لأغراض مختلفة، وقد اختفت هذه المهنة مع الزمن، وأصبح هناك وسائل جديدة في البحث عن زوجة أو البحث عن زوج، ليس من بينها أبداً أن تعرض ثلاث فتيات أنفسهن عليك بأوامر من مارد من الجن.

اللقاء مربك ويحفه التوتر، الفتيات لا يبدو عليهن الخجل المفترض وهذا أمر محير، أما نادر فتختلط في نفسه مشاعر الارتباك والإحباط على السواء، مذ دخل ثلاثتهن عليه ولم يجد في إحداهن ما يجذبه أو يلفت انتباهه، ثلاثتهن وكأنهن صنعن في نفس القالب، لهن نفس الطول والهيئة تقريباً، حتى ملامحهن البسيطة متشابهة بدرجة تجعلك تظن أنهن شقيقات.

تكلم نادر أولاً:

"أعتقد أن أول ما نقوم به هو التعارف، اسمي نادر سلطان، رجل أعمال ولدي شركة ناجحة"

تكلمت الفتاة المنفردة على اليسار:

"أنا نوال محمود حاصلة على دبلوم تجارة"

ثم قالت واحدة من الاثنتين على يمينه:

"نوال السيد.. دبلوم تجارة أيضاً"

وتابعت الثالثة:

"نوال الرفاعي .. وأيضاً دبلوم تجارة"

اتسعت عيني نادر في دهشة حقيقية، الثلاثة لهن نفس الاسم الأول ونفس قدر التعليم ونفس التخصص، هل هي مصادفة؟

"كلكن نوال وكلكن دبلوم تجاري .. يا لها من مصادفة" قالها نادر مستغرباً.

قالت الفتاة المنفردة:

"وكلنا كنا في نفس الملجأ"

وقع كلامها على نادر كان كوقع ضربة البرق لجزء شجرة تليدة، وتجمدت إمارات الدهشة على ملامحه للحظات كالدهر، فتبادلت الفتيات نظرة سريعة قبل أن تتكلم المنفردة مجدداً:

"ربما لسنا ممن ينسبون للطبقات الراقية في المجتمع، ولسنا ممن يحملون الشهادات العالية كذلك، ونحن تقريبا عاطلات عن العمل، يمكنك القول ببساطة أننا فتيات بلا مستقبل ولا نحمل ماض نفتخر به"

دار بناظريه في وجوههن وقد غرق في بركة الحيرة حتى أذنيه، ويجاهد ليتعلق بقشة العقل والمنطق بلا طائل، تكلمت نوال المنفردة والتي من الواضح أنها قائدة الفتيات وأكثرهن جرأة:

"أعلم أن هذا الموقف الذي نمر به جميعاً مربك ويثير التوتر، لكن الأمر لم يكن بأيدينا كما لم يكن بيدك"

سألها نادر بسرعة:

"إذن فأنت مجبرات على الأمر؟"

مطت شفتيها وقالت:

"يا سيدي منذ وعيت عقولنا ونحن مجبرات على كل ما نفعله"

دار بناظريه في وجوههن مرة أخرى قبل أن يلتفت نحو نوال المنفردة ويتأملها بتفحص، كانت تراقبه، تفرسها بملامح جامدة وكأنه يحدق في واحدة سواها، سألها وهو يراقب ملامحها بتركيز:

"وهل لي أن أعرف لما قبلتن الانصياع للأمر؟ أو بمعنى آخر ما هو السبب لقدومكن؟ وما الذي يجبركن على ذلك؟"

بدا عليها الاضطراب وكأنها تتذكر أموراً سيئة وتكتمها، تبادلت نظرة خاصة مع رفيقتيها ثم التفتت صوبه وقالت:

"اسمح لنا ألا نجيب على هذا السؤال، لا يمكننا الجواب الآن .. ربما يمكن لمن تختارها منا أن تجيبك بعد زواجكما؟"

صمت نادر للحظات يراقب انفعالاتها وخلجاتها بتمعن، فهم أنها تحت تهديد ما ولو باحت بما يريده فسينالها عقاب لا يعلم حجمه إلا هن، قال:

"حسناً يا نوال .. أخبريني بما يميز كل واحدة منكن على الأخرى حتى أجد سبب للاختيار"

أجابته بسرعة:

"يا سيدي كلنا متشابهات .. سأخبرك بسر تشابه أسمائنا، في الملجأ نسكن بترتيب الأسماء أبجدياً، فكان من الطبيعي أن يجتمع كل الفتيات اللائي يحملن اسم نوال في عنبر واحد، هناك خمس نسخ تحمل نفس الاسم، ثلاثتنا دخلنا الملجأ في أوقات متقاربة، صرنا صديقات منذ الطفولة، كل الفتيات هناك يحملن شهادات التعليم المتوسطة، اخترنا التعليم التجاري سوية لكي نظل مع بعضنا البعض .. أي واحدة منّا طيبة، مطيعة لدرجة لا يمكنك تصورها، يمكنك القول بأنه الخضوع والخنوع، لا نطمح لأي شيء من متع الدنيا، فقط نريد الستر والبعد عن تلك الحياة التي نحياها .. وقبل أن تسأل سؤالك القادم يمكنني أن أؤكد لك أن لا ضغينة بيننا على الإطلاق .. فمن ستختارها تفرح لها الأخرى"

استمع نادر لها إنصات كبير، لم يجد في كلامها ما يرغّبه في إحداهن، وزادت صدمته مما قدمه إليه شيصبان، وسأل نفسه الكثير من الأسئلة.

هل ثمة فتاة بينهن تليق به؟

هل يمكنه أن يأمن جانبهن وقد أتينه بمعرفه جني؟

هل يمكنه أن يشارك إحداهن أسراره وحقيقته؟ أم أنهن يعرفن كل شيء من البداية؟

كيف سيقدم من يختارها إلى المجتمع الذي ينتمي إليه؟"

أي ورطة تلك يا شيصبان؟

لماذا هؤلاء الثلاثة تحديداً؟

اشتعل عقله كمحرك عتيق يعمل بالديزل ولم تتم صيانته منذ عقود، وربما تخرج من أذنيه أبخرة عادم هذا المحرك، توصل عقله إلى حقيقة واحدة، هو لا يملك حق الرفض، وربما كان شيصبان كريماً معه حين وضع له خيارات، خيارات تكاد تكون متطابقة ولا فضل لإحداهن على الأخرى، لكنه يلتزم بالسمع والطاعة وعليه أن يختار، كذلك هن لا حيلة لهن في الأمر، ولا يملكن حق الرفض أو الجدال، أصابه شعور لم يعتده من قبل، شعور التابع الخاضع الذليل، هو بالفعل يخضع لأمر ناصورى وأتباعه، قوته وسطوته في عالمه فقط وبعيداً عن عالمهم، وحين يصبح الأمر في عالمهم فلا حيلة له وعلية الانصياع صاغراً.

ليست هذه هي الزيجة التي يريدها، لكنها الزيجة التي لا يمكنه رفضها، فهو يعلم العواقب، نظر إلى نوال المنفردة وقال:

"حسنا .. أعتقد أنني قد حسمتُ أمري"

تبادلن نظرة ترقب ولم تتفوه إحداهن ببنت شفة، فقال مخاطباً نوال المنفردة:

"أنت هي العروس يا نوال"

تبادلن نظرة بما يعني أن (هيا بنا فقد انتهى اللقاء)، فقمن من مقاعدهن وصافحن نادر الذي قام بدوره من مقعده، صافحته نوال العروس وكانت الأخيرة بينهن وهي تقول:

"سأخبرك برقم هاتفي المحمول لتحفظه وتتصل بي لترتيب الأمور"

ثم أملت عليه رقم هاتفها، فسجله بسرعة وقام بالاتصال بالرقم، لحظات وارتفع رنين هاتفها بداخل حقيبة يدها الصغيرة، شرعت تخرج هاتفها وهو ينهي الاتصال ويقول:

"الآن لديك رقم هاتفي .. احفظيه عندك وسيكون بيننا اتصال"

أومأت برأسها وكانت قد بدأت بالفعل في حفظ الرقم على ذاكرة هاتفها، ولمّا انتهت أعادته إلى مستقره بداخل حقيبتها وتحركت صوب الباب ومن خلفها الفتاتان قليلتا الكلام.

راقبهن نادر يخرجن ولم يهتم بمرافقتهن توديعا لهن، ثم ألقى بجسده فوق مقعده وهو ينظر إلى الباب بجواره بعدما أغلقته آخر المغادرات خلفها، تعلقت عيناه بالباب وسرح بعقله في سؤال واحد:

ترى ما الذي ينتظره في قادم الأيام؟

## (4)

نعود لمنزل رجب السيناوي، تحديداً في حجرة استقبال الضيوف، الوقت قرابة المغرب، الحجرة يحدها مقاعدة وأرائك مذهّبة تُكوّن صالون تقليدي عتيق الطراز مكسو بقماش من لونين: الأبيض والذهبي مع طاولة متوسطة الحجم، ذات سطح من الجرانيت الأبيض المعرّق بعروق رمادية.

بعدما غادرت ياسمين ومنال كما هو معتاد لم يكن في استقبال الشيخ مهدي علام سوى رجب وزوجته، حقيقة الأمر أن رجب رفض أن تحضر منال هذا اللقاء فهو لا يعلم ما الذي يمكن أن يحدث في حضور الشيخ مهدي.

مهدي رجل متوسط البنية، تجاوز الستين من عمره بقليل، ملامحه مصرية بامتياز فربما كان له جذور وأصول من صعيد مصر، شعر رمادي قصير بالطبع بعد أداءه مناسك العمرة، لحية بيضاء خفيفة مهذبة، مظهره يمنحك شعور عجيب بالراحة في حضوره والاطمئنان له.

قدمت زوجة رجب أكواب الشاي الساخن كما فضل الشيخ بنفسه، وجلست إلى جوار زوجها الذي لم ينته من عبارات الترحيب والشكر بعد ويقول:

"نحن نقدر لك قطع رحلتك والعودة مبكراً خصيصاً لأجل آية"

قال الرجل ببساطة:

"يا رجب ما بيني وبين عائلة السيناوي يحتم عليّ ما فعلته .. لكن أخبرني هل حدث أي من الأمور الغريبة ليلة الأمس؟"

رفع رجب يمناه أمامه وقد ضُمدت باحتراف فتتوقع أنه مر على المشفى في الصباح، أشار بها إلى الشيخ وهو يقول:

"باستثناء هذه فلم يحدث شيء .. لم نصدق أنا وزوجتي أن الليلة مرت بسلام على ابنتنا .. لدرجة أنها نامت طوال الليل وكأنها تعوض ما فات"

أومأ مهدي موافقاً وقال:

"بعد ما دار بيننا في المكالمة الهاتفية لم أنتظر لحين عودتي، طلب من رجالي التصرف بسرعة .. كما توقعت يا رجب .. ابنتك مرصودة"

كرر رجب في حيرة:

"مرصودة؟!"

تابع مهدي:

"مرصودة من جني تافه يتعمد إيذائها وتعذيبها .. لكنه لم يحاول القضاء عليها، هذا الأمر تم بغرض الانتقام ولا شيء سواه"

رجب في حيرة ودهشة:

"الانتقام؟ .. الانتقام من آية؟ .. ومن ذا الذي يقدم على فعله كهذه؟"

تدخلت زوجته قائلة:

"آية المسكينة لم تؤذ أحداً قط .. لا بالقول ولا بالفعل .. لماذا يرغب أحدهم في الانتقام منها؟"

أومأ مهدي موافقاً وقال:

"أسباب مختلفة .. ربما تقدم أحدهم لخطبتها وتم رفضة مثلاً .. أو ربما هي صديقة غيورة بشكل أو بآخر .. هناك أسباب كثيرة يمكن أخذها بعين الاعتبار"

قالت الزوجة:

"لم يتقدم أي شاب لخطبتها .. كما أن صديقتها الوحيدة هي ياسمين ابنة أخي ولا يمكن أن تؤذي آية"

مهدي:

"أعلم هذا .. إنما كنت أُعدد لكما بعض الأسباب .. المهم أن رجالي أبعدوا الأذى عنها بالأمس .. وهناك بعض الترتيبات التي تمت والتي سوف تتم حتى نضمن ألا يتكرر الأمر"

مال للأمام واقترب من رجب وقال بصوت شبه هامس:

"يجب أن ألتقي بآية لبعض الوقت على انفراد .. ثم سنذهب لقضاء حاجة سريعة"

ربت رجب على ركبة الشيخ ثم قال:

"لك ما تشاء أيها الشيخ .. لكن أولاً سنقوم جميعا لتناول طعام الغذاء .. فأم منال قضت النهار في تحضير الأصناف التي تليق بك"

ابتسم مهدي وقام مع رجب وزوجته، تسللت السكينة إلى البيت مرة أخرى خاصة مع توقف الحوادث في الليلة السابقة، وجود مهدي وثقته في إنهاء كل هذا جعل الهدوء يطرق بابهم من جديد، فمرحبا به.

## (5)

خلف السائر التقى شيصبان المتجسد بشرياً بنادر في ذلك الجزء من مكتب الأخير، يقفان متقابلين وبينهما مبخرة تتصاعد منها ألسنة الدخان المتراقصة فتعطي لملامحهما تأثيراً مخيفاً، دعنا ندور حولهما بلا توقف لنضيف تأثير الاضطراب إلى المشهد .. هيا فلنبدأ بالدوران.

سأل شيصبان:

"هل اخترت عروسك يا ابن النجاتي؟"

أومأ نادر وأجاب:

"نعم، لقد اخترت واحدة .. إنها نوال"

شيصبان بلهجة متهكمة:

"يبدو أنك في مزاج للمزاح"

تصنع نادر عدم الفهم وهو يسأله:

"مزاح؟! ولمَ المزاح؟"

رفع شيصبان سبابته في وجه قائلاً:

"أنت تعرف مقصدي .. كلهن نوال يا ابن النجاتي"

قال نادر ساخراً:

"إذن لا فرق .. ألم يكن لديك مجموعة أخرى أكثر تنوعاً؟"

شيصبان:

"اسمع أيها النجاتي .. فيبدو أن عقلك بحاجة للانتعاش .. كيف كنت تتوقع أن تتم زيجتك؟ لو ظننت أنك ستختار عروساً وتقيم حفل زفاف وتحيط نفسك بالراقصات والمطربين فأنت واهم ولا شك، هذه الأمور يقوم بها البشر العاديون، أما أنت فقد خلعت هذا الثوب بإرادتك واختيارك، وعليك أن تفهم أن عالمنا لا يحتمل هذه التفاهات .. من ستتزوجها يجب أن تتبعنا بشكل أو بآخر .. فهي في الأخير ستكون مجرد خادمة لك ولنا، خادمة للعهد .. عُد لرشدك يا ابن النجاتي"

صمت نادر وغاب يفكر فيما قاله شيصبان، فلنتوقف نحن عن الدوران حولهما ونركز على ملامح نادر، لم تكن الحقيقة غائبة عنه، وإنما هي صدمة مواجهتها، وجد المنطق فيما سمعه، حقيقة الأمر أنه لم يتخيل أن تتم الزيجة بهذه الطريقة، لكنه فهم الأمر أخيراً، من هم مثله ويحييون نفس حياته لا زوجات لهم، والمقصود هنا المعنى التقليدي للزوجة، فهو إذا ارتبط فإنما يرتبط بخادمة، وربما تكون زوجته هي الأخرى من حملة عهود الجن في أحسن الحالات ووقتها سترتفع قليلاً عن مرتبة الخادمة، لكنها أبداً لن تكون زوجة بمفهومها الإنساني أو الاجتماعي.

عاجله شيصبان بسخرية:

"يبدو أن الحقيقة صدمتك يا ابن النجاتي .. المهم، عليك الاتصال بعروسك وترتيب الإجراءات في أسرع وقت .. أتم العقد عند أقرب مأذون تصادفه .. يجب أن يتم الزواج في خلال أيام ثلاثة على أقصى تقدير"

تكلم نادر معترضاً:

"لكن هناك أمور يجب أن نناقشها و..."

قاطعه شيصبان بحدة:

"ويحك أيها الطيني .. هل جننت؟ أنت هنا لتنفذ فقط ما تؤمر به، وفي المقابل فأنت تحصل على ما لا يتخيله بشر .. عُد إلى رشدك أيها النجاتي واعرف مكانتك"

طأطأ نادر رأسه، فهو لا يملك خيارات ولا يملك حتى حق المناقشة، كم يكره اللحظات التي يكون فيها في حضرة شيصبان أو ناصورى، فهي تلك اللحظات التي تعيده إلى واقعه الذي طالما ادعى عكسه، هو مجرد خادم لسيده المارد، همس في خضوع:

"كما تريد يا شيصبان .. سنتزوج غداً"

لم يتلق تعليقاً من شيصبان ولا أوامر جديدة، فرفع عينيه ببطء ليجد نفسه في المكان وحده وقد رحل شيصبان ولم يعد له أثر، فركل المبخرة المشتعلة بقدمه في غضب ممزوج بالحنق لتسقط أرضاً.

# الفصل السابع

# ضربة قاصمة

## (1)

في بقعة مجاورة لأحد مواقع إنشاء الأبراج السكنية في ضاحية حدائق الأهرام بالجيزة، تحت ستر الليل وجناحه، وقف رجب ومهدي يراقبان عاملاً يقوم بالحفر في الأرض الترابية مستخدما فأساً صغيراً ومستعيناً بمصباح يثبته على رأسه، عامل يعمل في خدمة الشيخ ويأتمر بأمره.

لم يرغب رجب في سؤال الشيخ عن كيفية معرفة لهذا المكان حيث يؤكد أن التعويذة مدفونة هنا؛ يعرف أن للرجل معاونين وخدام يمكنه الكثير والكثير، ثمة أسئلة كثيرة تدور في عقله لكنه آثر ألا يبوح بها طالما الرجل يؤدي مهمته على الوجه الأمثل، لأنه يفهم جيداً أن العاملين بهذه الأمور لهم أسرارهم التي لا تكشفها الأسئلة.

كان رجب يتابع العامل الذي يحفر بحرص شديد، وكأنما هو عالم أثري يقوم بالتنقيب عن نتاج حضارة قديمة تحت التراب، ويخشى أن يكسر أي شيء بمعوله.

هذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها الكشف عن عمل سفلي في موقع دفنه، يتوقع أن يجد ورقة ما مطوية بداخل كيس بلاستيكي كما يسمع من الذين خاضوا هذه التجربة.

توقف العامل عن الحفر ونحى فأسه جانباً، نزل على ركبتيه وبدأ يكشف التراب بيديه حتى ظهرت لفافة بلاستيكية أكبر بكثير مما يتوقعه رجب، نهض العامل وناول كشفه إلى الشيخ مهدي فقلّبها بين يديه ثم تحول بنظره إلى رجب وقال:

"علينا الآن أن نقوم بفتح هذه اللفافة واستخراج العمل"

أومأ رجب موافقاً في اللحظة ذاتها تحرك العامل باتجاه سيارتين متوقفتين على مقربة منهم، الأولى سيارة رجب الخاصة التي تقله مع الشيخ، والثانية سيارة نقل صغيرة (ربع نقل) من طراز قديم بعض الشيء هي سيارة العامل والتي وصل إليها وأخرج منها حقيبة جلدية عاد بها مسرعاً وناولها للشيخ.

جلس مهدي أرضاً ومعه عامله، ارتبك رجب للحظة ثم جلس هو الآخر يراقب ما يفعله الشيخ، حلّ مهدي أربطة اللفافة وناولها للعامل ثم بدأ يفك اللفافة نفسها حتى ظهر ما فيها .. جثة هر أسود، امتعض رجب وانقلبت سحنته من المنظر الموسوم برائحة كريهة، لكنه حافظ على ثباته.

أخرج مهدي من الحقيبة مبضعاً كالذي يستخدمه الجراحون ومقصاً صغيراً وبعض الأدوات الأخرى، شرع يقطع الخيوط التي تجمع جانبي بطن الهر حتى فتح الجرح تماماً، باستخدام ملقط طويل أخرج الكيس البلاستيكي من بين أحشائه ووضعه جانباً، سكب عليه بعض المياه من قنينة صغيرة ثم تناول الكيس وقام واقفاً تاركاً مهمة إعادة الهر إلى ما كان عليه ودفنه لعامله الذي لا ينطق أبداً.

قام رجب بسرعة واقترب من الشيخ وهو يحدق في الكيس الشفاف وما يحتويه بدهشة بالغة، تلى الشيخ آيات كتاب الله وهو يمزق الكيس ثم ألقاه أرضاً وأخذ يقلب ما كان بداخله بين يديه، قطعة من الجلد

بدأت تفقد لونها مطوية وكأنها مظروف صغير، تحسس ملمسها وهو ينقل بصره بينها وبين رجب المترقب في صمت، فض الرقعة الجلدية وتأمل النقش الموجود عليها والذي بهت لونه بعض الشيء، قطب حاجبيه واعتلت وجهه ملامح الضيق وبعض الغضب ثم نظر إلى عامله فوجده قد لف الهر في كفنه البلاستيكي ووضعه في لحده الصغير وقبع منتظراً.

اتجه مهدي إلى العامل ونزل على ركبتيه وأخرج من الحقيبة الجلدية أعواد الثقاب، أشعل النار في الرقعة وهو يتلو آيات الذكر الحكيم، وترك الرقعة تشتعل بجوار جثة الهر، استمر في تلاوته حتى خمدت النار فقام، وترك العامل يهيل التراب عليها ورجع إلى رجب الذي تملكه العجب والوجل وسأله مباشرة:

"هل تعرف شخصاً باسم نادر السلطان؟"

بدا على رجب محاولة التذكر وهو يقول:

"نادر السلطان؟! ... لا أعتقد أنني أعرف رجل بهذا الاسم، رغم أنه يبدو مألوفاً بطريقة أو بأخرى .. من هو ذاك؟"

وضع مهدي يده على كتف رجب ودفعه ليتحرك باتجاه سيارته وهو يقول:

"هو صاحب هذا العمل .. هيا بنا فمهمتنا لم تنته وسأخبرك بما لدي في الطريق"

هرولا إلى السيارة وما إن استقرا بداخلها حتى انطلق بها رجب مسرعاً وخلفهما ذلك العامل يجمع أدواته وينهي مهمته.

وصف مهدي وجهتهما إلى رجب، عرف هذا الأخير المكان وانطلق إليه، لم ينتظر ما سيقوله الشيخ وبادر سائلاً في عصبية واضحة:

"قل لي يا شيخنا من هو نادر سلطان هذا؟ وما الذي دفعه ليفعل فعلته الحقيرة تلك؟ ..والأهم أين أجده لأقتص منه؟"

أجاب مهدي بسرعة:

"اهدأ يا رجب ودع انفعالك جانباً .. سأخبرك بما لدي من معلومات .. لقد اكتشف رجالي جناً يرصد ابنتك بغرض تعذيبها ونجحوا في أسره .. في مثل هذه الحالات يتم القضاء على الجني فوراً، لكن هذه المرة لم يحدث هذا إذ وجدوا الجني ينتمي لقبيلة معادية لهم لكن يحكمهم عهد وميثاق، قاموا بإخفائه لحين معرفة الحقيقة بعدما استجوبوه وحصلوا على معلومات هامة جداً"

هز رجب رأسه في حيرة وقال:

"لا أفهم ما الذي ترمي إليه تحديداً .. هل تقول أن الصراع بين جني ورجالك؟"

نظر مهدي إليه للحظة ثم قال:

"مساعديّ يا رجب هم رجال مثلي ومثلك كالذي ساعدنا في إخراج العمل قبل قليل .. أما رجالي فهم أولئك الذين لا تراهم ولا أراهم أنا شخصياً .. هل فهمت؟"

استوعب رجب التصنيف الخاص بمهدي، عندما يقول رجالي فهو يقصد الجان المعاونين له، إذن هناك صراع بين قبيلتين من الجان وجد نفسه وأسرته في وسطه دون إرادة.

تابع مهدي:

"العهد بين القبيلتين يقتضي عدم التعرض، فهل ما حدث مجرد مصادفة أم أن زعماء القبيلة المعادية كانوا على علم بتسليط نفر منهم

على ابنتك؟ خاصه وأن عائلتكم معروف عنها التعامل معي، هذا ما يسعون لكشفه .. المهم أننا توصلنا لصاحب العمل واكتشفنا أنه ذو باع فيما يفعل .. ونحن الآن في طريقنا لمقابلة مساعده"

شعر رجب بالحيرة، هناك الكثير من الغموض الذي لا يفهمه حول عالم الجن، لم يحاول يوماً أن يهتم بأمرهم، فها هو الآن يعيش على مشارف عالمهم بلا أي رغبة أو إرادة، في أعماقه يتمنى أن يبتعد عن كل هذه الأمور والمهم أنه اطمئن على أسرته، أما ما دون ذلك فلا يعنيه.

## (2)

في مقهى متواضع بداخل حارة في منطقة شعبية بوسط البلد، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل جلس سيد يدخن المعسل في شرود، يتذكر ما حدث له قبل ليلتين بالضبط.

خرج من البناية التي يقبع فيها مكتب نادر بعدما أنهى عمله وأغلق المكان، يسير فوق الرصيف وهو يضع كفيه في جيبي سرواله ويطلق صفيراً منغّماً لأحد الأغنيات الشعبية المنتشرة في هذه الفترة، يسير صوب الموقع حيث يترك سيارته المتواضعة، يعتقد أنه لو ترك سيارته على مقربة من مكان عمله فستجذب إليه الانتباه بشدة إذ لا مكان لها وسط كل هذه السيارات الفارهة التي تتكلف ثروة طائلة لشرائها.

قطع صفيره وتوقف مكانه في قلق، التفت فجأة إلى الخلف فلم ير أحداً هناك، ثمة شعور بأن أحدهم يتبعه ويسير خلفه، وقف نظر حوله في قلق، الشارع خالي تماماً ولا أحد هناك ولو على مسافة بعيدة.

أكمل مسيرته وعاد لصفيره، بضعة خطوات فقط قبل أن يتوقف من جديد ويطلق سبابه وهو يتلفت حوله في كل مكان، هو وحده ولا شك في هذا، عينيه تؤكدان له ذلك .. إلا إذا كان هناك من لا يراه، أربكته هذه الفكرة فنزل عن الرصيف وقرر السير في منتصف الطريق

وقد زاد من سرعته وتوقف عن الصفير، عاوده نفس الشعور، يكاد يقسم أنه مراقب، قرر ألا يتوقف وانطلق يعدو بكل قوته ولم يولِ.

انعطف أكثر من مرة في طرق جانبية وبدأت أنفاسه تتلاحق في لهاث عنيف، يطلق السباب كل حين، اكتشف الآن فقط أنه اختار مكاناً بعيداً ليترك سيارته، مكاناً بعيد لدرجة أنه لا يمكنه أن يركض هذه المسافة كلها.

توقف وقد عجز عن المواصلة، انحنى يتكئ على ركبتيه وهو يجاهد ليسترد أنفاسه، لا يولي الدبر وهو يخشى ما قد يجده، هز رأسه في تعب وهو يلعن التدخين والمدخنين، انتصب بعد أن هدأت أنفاسه بعض الشيء وتحرك بسرعة، يكاد يجد الطمأنينة وهو يشعر بأن مراقبه قد تركه ورحل، أو ربما لم يتمكن من اللحاق به.

وصل أخيراً إلى سيارته وهو يقسم بألا يتركها بعيداً لهذا الحد، فتح بابها بعصبية ودلف إليها بسرعة، أغلق الباب وحاول تشغيل المحرك بانفعال.

أطلق شقة وحاول أن يتراجع في مقعده وسقطت مفاتيحه من يده حين ظهر من العدم رجل في المقعد المجاور له، مد يسراه يحاول فتح الباب فلم يستجب أبداً، بادره الرجل بقوله:

"لا تخف يا سيد فلست هنا لإيذائك"

لم يجبه سيد وهو يصارع مقبض الباب العصي، وظل يحدق في الرجل ذو الملامح الحادة والملابس السوداء الذي قال بحسم:

"قلت لك لا تخف"

تجمد سيد مكانه في رعب، لكن ظل عاجزاً عن استعمال لسانه وحنجرته في الكلام، فقال الرجل:

"لست هنا من أجلك .. وإنما من أجل سيدك الذي تعمل في خدمته"

هز رأسه بلا معنى ولم يعقب، فقال الرجل:

"أنت الآن لا تملك أي خيار، ستتعاون معنا شئت أم أبيت، الأمر أكبر منك ولا يمكنك الفرار من مصيرك المحتوم .. إذا تعاونت بإرادتك فسيعود ذلك عليك بالنفع .. وإلا فستتعاون مكرهاً"

يبدو أن هذا الرجل يفهم طبيعة سيد جيداً، هو على استعداد لفعل أي شيء طالما هناك مقابل، وقد نجح أسلوب الرجل في تحرير عقدة لسانه أخيراً وقال:

"من أنت؟ وماذا ... ماذا تريد مني؟"

ابتسم الرجل وقال:

"لا شيء يصعب عليك فعله .. فقط حاول أن تراقب سيدك وتسجل عليه تحركاته ولقاءاته .. ثم انتظر أن يأتيك اتصال بعد يومين"

سأل سيد:

"اتصال؟! .. اتصال من أي نوع؟"

أجابه:

"اتصال على هاتفك .. والآن تناول مفاتيحك وأدر المحرك"

انحنى سيد ومد يده يبحث عن مفاتيحه، وجدها فاعتدل وهو يطلق السباب واللعنات، فقد تلاشى الرجل من فوق مقعده وكأنه لم يكن، ضرب رأسه بمقود السيارة مرتين ثم ترك رأسه فوق المقود وهو يلعن حظه العاثر الذي ألقى به في طريق السلطان ومصائبه.

عاد من ذكرياته على صوت رنين هاتفه المحمول، تناوله من فوق المنضدة الصغيرة التي أمامه فوجد شاشته تحمل نفس الرقم الذي

اتصل به سابقاً وحدد معه موعد اللقاء، همّ بإجابة الاتصال لولا أن توقف الرنين وفي ذات اللحظة ارتفع من خلفه صوت يقول:

"إذن فأنت سيد"

هب واقفاً واستدار يواجه القادم إليه، فوجد رجلين، بالتأكيد أنت تعرفهما، رجب ومهدي، قال سيد :

"أنا هو أيها المحترم"

أشار له مهدي ليجلس ففعل، جلس القادمان بدوريهما، وتكلم مهدي قائلاً:

"أحسنت بتعاونك معنا يا سيد"

قال سيد متهكماً:

"ومن ذا الذي يقدر على عصيان من أرسلته يا ... أنا لم أتشرف بالاسم بعد"

قال مهدي بسرعة:

"الأسماء لا تهم .. مطلوب منك مهمة محددة وستحصل على مقابل أدائك هذه المهمة، بعدها تنسانا وننساك"

قال سيد:

"يا سيدي لقد طلب مني رسولك مراقبة السلطان .. أنت لا تعلم ما الذي يمكنه فعله لو اكتشف الأمر"

مهدي:

"وأنا واثق أنك فعلت بالفعل .. وربما نود أن نسمع منك خبراً مميزاً فيما حدث في اليومين الماضيين .. وربما نعتبر هذه المعلومات بداية

العمل وستنال مكافئتك لو أخبرتنا بما يفيد .. وبعدها أُخبرك بمهمتك"

سحب سيد نفساً مختلط بالدخان من الشيشة التي أمامه ثم نفث الدخان ببطء في الهواء وهو يقلب الأمر في رأسه، نظر إلى مهدي وقال:

"ينوى السلطان أن يتزوج"

"وما الغريب في رجل يريد الزواج؟" سأل مهدي.

"الغريب هو طريقة انتقائه للعروس، ليلة أمس فوجئت بثلاث فتيات يطلبن لقاءه ويدعين أن ثمة موعد بينهم، بالطبع لو كان هناك موعد مسبق لكنت على علم به، الغريب أنه وافق على مقابلتهن، وقد استرقت السمع فعرفت أن ثلاثتهن عرضن أنفسهن عليه واختار منهن واحدة"

صمت مهدي يفكر في الأمر، طريقة غريبة للزواج، لابد وأن ثمة شيء خفي في هذا الأمر، قال سيد:

"هل تبدو لك هذه المعلومة بالمفيدة؟"

ابتسم مهدي وأخرج من جيبه مبلغاً من المال ملفوفاً في رباط مطاطي ووضعه أمام سيد الذي لمعت عيناه في ظفر، لكن مهدي سحب المال بسرعة سأله:

"هل عرفت اسم العروس؟"

أجاب سيد دون تفكير:

"نوال محمود .. وهي خريجة أحد الملاجئ"

أعاد مهدي له المال وقال :

"لا بأس .. سأخبرك بمهمتك .. عليك أن تحضر لي أدوات نادر وكتبه الخاصة .. الخاصة يا سيد هل تفهمني؟"

ترك سيد الشيشة من يده وقال وهو يدس المال في جيبه:

"ما الذي تقوله أيها المحترم؟! وهل تظن أن السلطان لن يكتشف أنني الفاعل؟ ثم أنني لا أعرف مكان أدواته وكتبه التي تريدها"

مهدي:

"لن يكتشف هوية الفاعل لأنني سأقتلع عيونه من المكان حتى تنجز عملك .. لكن لا تتحاذق عليّ وتدعي جهلك بمكان أدواته .. أنت مساعده الوحيد وكاتم أسراره"

ابتسم سيد وقال:

"مساعده الوحيد نعم .. لكن لا أحد يحمل أسرار السلطان سوى السلطان"

قال مهدي بحدة:

"لا تراوغ يا سيد"

قال سيد وهو يلوح بيده:

"لا أراوغ أيها المحترم .. أنا أنفذ ما يطلبه مني فقط .. لكن صدقني لا أحد يحمل أسرار السلطان .. وأنا أعرف أن لديك ألف وسيلة لتتأكد من صدق كلامي."

صمت مهدي للحظة وتبادل نظرة مع رجب الذي لا يفهم سبب وجوده في هذا الاجتماع من الأساس، ثم التفت إلى سيد وقال:

"حسناً .. أصدقك .. لكن لابد أن ثمة ركن خفي في المكتب .. حجرة لا يدخلها سواه أو شيء من هذا القبيل"

سيد:

"أنا أعرف كل شبر في المكتب .. حتى الجزء في مكتبه الذي يقبع خلف الستائر الثقيلة فلا يحتوي إلا مجالس ومقاعد ومباخر تطلق الرائحة العطنة التي يطلقها ولا أدري كيف يتحملها .. حتى أنني قمت بتنظيف هذا الجزء قبل أن أغلق المكتب بعدما سقطت المبخرة وتبعثرت محتوياتها أرضاً .. ولا يوجد أي مما تبحث عنه"

مهدي:

"ابحث يا سيد .. ابحث .. تحيّن وقت غيابه ودقق البحث وستصل بالتأكيد .. هؤلاء الرجال لا يتركون أدواتهم بعيداً عن متناولهم"

صمت سيد للحظة ثم قال:

"لقد أخبرني بأنه لن يتواجد في المكتب يوم غد وبعد الغد .. ربما يمكنني استغلال هذا الوقت .. لكن عليك أن تُقَدّر هذه المخاطرة"

ربت مهدي على كتفه وقال مبتسماً:

"لا تقلق يا سيد .. حقق الهدف واتصل بي فوراً .. والآن يمكنك المغادرة ومشروبك على حسابي"

أومأ سيد وقال:

"كما تشاء أيها المحترم"

انطلق غير معقب فالتفت رجب نحو مهدي وهو يحاول أن يفهم ما حدث، ثم نادى على النادل وطلب كوبيّ شاي ساخنين، ثم سأل مهدي:

"لماذا تحتاج إلى هذا الرجل؟ أقصد لماذا لا يقوم رجالك بالمهمة؟"

قال مهدي:

"أخبرتك أن بين رجالي وبين تلك القبيلة عهداً وميثاقاً .. ورجالي لا ينقضون عهودهم"

قال رجب متسائلاً في دهشة:

"ألم تقل أن ذلك المدعو سلطان لن يكتشف الفاعل لأنك ستقتلع عيونه من المكان؟ إذن لن يعرف أن رجالك نقضوا عهدهم"

أجاب مهدي بعد لحظات صمت وتفكير:

"أنت تعرف أن لكل مكان عُمّاره .. كل ما سأفعله أنني سأبعد العمار غداً حتى يتمكن سيد من البحث فلو استجوبهم نادر هذا فلن يصل إلى شيء"

قال رجب:

"هذا ما يؤكد دهشتي؟ طالما لن يُكتشف الأمر فلم تجعل أحد رجال نادر يتدخل في الأمر؟ إلا تخشى أن يحافظ على ولائه لسيده؟"

قال مهدي:

"ليس هذا ما أخشاه .. سيد عبد للمال ولا يخشى شيئاً ولا يتردد لكسب المزيد .. حقيقة الأمر أن هناك طريقة لكشف الفاعل"

صاح رجب:

"ماذا؟! هل تُلقي بسيد في الهاوية؟!"

صمت مهدي، فقد دخل النادل عليهما، ووضع الشاي أمامهما فوق المنضدة الصغيرة وغادر، فأجاب مهدي:

"لم أقل هذا .. أنا لا أهدف للإطاحة بسيد هذا، لكن طالما هناك احتمالية لاكتشاف الأمر فلن أورط رجالي حتى يحسموا أمرهم مع تلك القبيلة اللعينة .. لكني واثق أن نادر لن يفعل .. خاصة أنه سينشغل"

هز رجب رأسه وسأل مندهشاً:

" وما الذي سيشغله؟"

أجاب مهدي:

"الزواج".

## (3)

انطلق نادر يهبط درجات السلم الداخلي في فيلته والذي يربط الطابقين المكونين لها بكل سرعته وهو يحكم ربط الثوب المنزلي جيداً حول خصره، يكاد الغضب يصرخ من ملامحه، نزل إلى الطابق الأرضي واندفع إلى حجرة المكتبة ودخلها صافعاً الباب خلفه في عنف شديد.

وقف يتأمل الحجرة وكأنه يراها للمرة الأولى، آلاف الكتب تزين الرفوف التي تكسو الجدران، طاولة خشبية صغيرة معدّة للقراءة والكتابة، عليها مصباح صغير وخلفها كرسي خاص مصنوع من الخشب وله ظهر عالي، أمام الطاولة كرسيين من نفس النوع، وطاقم أرائك في منتصف الحجرة تماماً يحيط بمنضدة ذات سطح زجاجي منخفضة قريبة للأرض يتراص عليها بعض الجرائد والمجلات.

ظل متسمراً مكانه عند الباب للحظات طوال، يستجمع أنفاسه ونَفْسه، قبل أن يتحرك أخيراً ليجلس خلف الطاولة الخشبية وعليه إمارات الضيق والغضب والبغض في آن واحد.

بعصبية فتح درجاً صغيراً في الطاولة وأخرج علبة مكسوة بالقطيفة الزرقاء، فتحها وأخرج منها سيجاراً رفيعاً طويلاً من نوعية

فاخرة، تناول القداحة الذهبية من داخل نفس العلبة ليشعل السيجار ويسحب نفساً عميقاً معبّقاً بالنيكوتين، لم يكن التدخين من عاداته رغم أنه لا يمانع تدخين واحد من تلك النوعية الفاخرة من آن لآخر في المناسبات التي يحضرها، أما الآن فهو يحاول أن ينفث مع دخان هذا السيجار بعضاً من غضبه وحنقه.

ظل يدخن في صمت محدقاً في سقف الحجرة وقد تملكه شرود كلي، ذهب بتفكيره بعيداً حتى أنك تشك هل سيشعر بك لو أطلقت الرصاص من جواره؟

بعد بضعة دقائق من الشرود وسط سحابة الدخان التي كونها اعتدل بغتة، وقام يدور بلا هدى في أرجاء الحجرة، وبعد عدة دورات وقف أمام الطاولة وسحق سيجاره في المنفضة الفضية وشرع يتلو تعويذة ما، من الواضح أن غضبه وحنقه لم يزولا بعد.

ظل يردد ما يقوله بصوت مرتفع، فجأة تخلخل الهواء في الحجرة، وظهر شيصبان في هيئته البشرية خلف نادر تماماً وقال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة قلما تظهر على ملامحه الرخامية:

"مبارك عليك الزواج"

التفت نادر للخلف بحدة وأمسك بتلابيب شيصبان وصرخ في وجهه قائلاً:

"أي شِرك هذا الذي نصبته أنت و..."

قبل أن يتم صياحه حدجه شيصبان بنظره أرق ما توصف به أنها مرعبة، شعر نادر بآلام حداة في ذراعيه، فأفلت شيصبان وهو يتألم، عدل الأخير من هندامه وقال بلهجة قاسية:

"هل جُننت أيها الفاني الحقير؟! أتتطاول على سادتك؟! يبدو أنك مللت رغد هذه الدنيا وتود أن تلقى جحيمك"

نقل نادر نظره بين ساعديه المضمومين حول معدته وبين شيصبان ثم تراجع في ذلة وألقى بجسده فوق واحدة من الأرائك التي تتوسط الحجرة، وطأطأ رأسه وهو يقول بخفوت:

"لم أتوقع ما وجدته يا سيدي"

تحرك شيصبان ليجلس في مواجهته وهو يقول:

"لو تكررت فعلتك هذه فسأرفع أمرك للعظيم ناصورى .. ليس لأقتلك .. بل ليطيل فترة عذابك الذي سأشرف عليها بنفسي"

انتهى من عبارته وقد جلس بالفعل في مقابل نادر، وضع ساقاً فوق الأخرى وسأله:

"ما الذي جعل عقلك يطير بهذا الشكل ويدفعك لطلبي"

قال نادر ولم يرفع عينيه بعد:

"العروس التي جلبـ... أقصد نوال يا سيدي .. إنها ..."

لم يكمل عبارته فقال شيصبان بغضب:

"تكلم فلا صبر لدي"

قال نادر بسرعة:

"إنها ليست عذراء يا سيدي"

شيصبان في برود:

"وماذا في هذا؟!"

هنا رفع نادر ناظريه إليه وقال في حدة:

"ماذا في هذا؟! أي قول هذا يا سيدي .. لماذا وضعت في طريقي عروساً كهذه؟"

مال شيصبان للأمام وقال ببرود مستفز يفوق برودة ألاسكا في فصل الشتاء:

"سبق وأخبرتك أن هذه الزيجة هي التي تناسبك وتناسب ما بيننا من اتفاق، فلا تقف كثيراً عند أمور ثانوية كتلك التي تذكرها، ألم يكفك الأبكار اللاتي هتكتهن؟! .. نوال هذه هي من تناسبك وكأنها رداء فُصِّلَ على مقاسك"

قطب نادر حاجبيه وقال متسائلاً:

"هل كانت هي المختارة منذ البداية؟"

قال شيصبان في سخرية لم تظهر على ملامحه:

"يبدو أن عقلك بدأ يعمل أخيراً"

أردف نادر:

"إذن فقد جعلتني أختارها دون غيرها"

شيصبان:

"ليس الأمر كما تظن .. إنما هي بعض المساعدة التي بُثت في عقلك لتختار الخيار الصائب"

صمت نادر وفي أعماقه يتصاعد كل غضب الدنيا ويستعر جحيماً من سموم، لقد دفعوه دفعاً ليختار هذه الفتاة ليتزوجها، تزوجها وكأنه يواري شائنة فلا حفل ولا حضور ولا أي شيء، عُقد قرانهما صباحاً قبل أن يعودوا إلى الفيلا وكأنهما يتخفيان عن العيون، وفي

ليلته الأولى مع زوجته يكتشف أنها لم تكن عذراء، وهذا اللعين شيصبان يتفنن في ذله وإهانته.

ازدرد لعابه في ضيق ثم سأل:

"ولماذا هي بالتحديد؟"

قال شيصبان ببروده القاتل:

"قبل أن أجيب سؤالك هذا سأجيب أنا تطوعاً عن سؤال لم تسأله .. لماذا الآن نسمح لك بالزواج؟ .. لأنه آن الأوان لتنجب طفلاً يرث ما أنت عليه .. طفلاً سنرعاه رعاية خاصة فيصبح أقوى رجل على الأرض كلها"

مال للأمام وقال:

"أما سؤالك فجوابه بسيط جداً .. فهي من طينتك"

ثم تراجع في مقعده وقال:

"ومن دمك"

صاح نادر مستنكراً:

"ماذا؟"

تصنع شيصبان الدهشة في مرة جديدة نرى فيها بعض الانفعالات على وجهه الجليدي وقال:

"ألم أُخبرك من قبل؟!"

قال نادر بعصبية وضيق:

"قل ما الذي تعنيه بكلامك"

قال شيصبان:

"هل تذكر عمك المأفون عارف؟! .. كان يحلو له العبث مع من يأتينه من نساء القرية، من كانت تجذب انتباهه من النساء فكان يربطها فلا تقدر على الاختلاء بزوجها، فيأتينه طالبات المساعدة، لينال منهن ما يريد، وبهذه الطريقة بذر في الدنيا ثلاثة بذور .. واحدة من تلك البذور كانت نوال"

لم يعقب نادر وقد أوشك على الجنون، فتابع شيصبان:

"كانت كل امرأة تشعر ببذرة عارف وهي تتكون في أحشائها فتكتم الأمر، ويظن الزوج أن هذا الجنين من صلبه هو، لكن أمّ نوال كانت لها قصة مختلفة؛ تزوج زوجها قبلها اثنتين ولم ينجب منهما فطلقهما، ثم جاءت هي وحملت ووضعت نوال فسُر الرجل وأسرع يتزوج من جديد .. زوجته الجديدة لم تنجب .. المشكلة أن زوجته الجديدة كانت من قرية أخرى ولما تأخر حملها ذهب بها أهلها للمشايخ لعلهم ينفعوها فأكدوا أن البنت لا شيء يعوقها عن الإنجاب إلا أن يكون زوجها عقيم، فصارح أهلها الرجل بهذه الحقيقة فجُن جنونه واتهمهم بمحاولة فصله عن زوجته فهو سليم والدليل نوال .. وبعد فترة رضخ للأهل وذهب معهم لنفس الشيوخ الذين أكدوا له أنه لم ولن ينجب .. عاد كالمجنون إلى نوال وأمها ليعرف قصتهما فلم يكن لهما أدنى أثر في بيته ولا في القرية كلها .. والباقي يمكنك أن تستنجه أنت"

استمع نادر لما رواه شيصبان بعينين ذاهلتين وفم فاغر في دهشة بالغة، لم يتمكن من استيعاب هذه المفاجأة، أجفل حينما سمع طرقات سريعة على باب الحجرة، التفت صوب الباب للحظة، ثم عاد بنظره إلى شيصبان، أو بالأحرى الموقع الذي كان يجلس فيه شيصبان الذي اختفى وتلاشى وكأنه لم يكن.

التفت صوب الباب وقال بضيق:

"ادخل"

فُتح الباب فكانت هي نوال، تقف في ثوب منزلي خفيف وقد جمعت شعرها برباط مطاطي، تقدمت وجلست بجوار نادر وسألته:

"لماذا انطلقت هكذا؟ هل أخطأت في شيء؟"

نظر في عينيها مباشرة وفي أعماقه ألف صراع وصراع، اعتدل في جلسته ليواجهها ثم قال وهو يحاول أن يبدو متماسكاً:

"نحن لم نتعرف إلى بعضنا البعض يا نوال .. وربما أود أن أعرف كيف عرفتي بطلبي للزواج ومن الذي أرشدك إليّ؟"

قطبت حاجبيها وقالت مستغربة:

"أي سؤال هذا؟ ألم تطلبنا أنت من الوكالة؟"

اتسعت عيناه في دهشة وسأل في عجب:

"وكالة؟ أية وكالة؟"

حدقت في وجهه وقالت:

"أنا لا أفهم ما الذي ترمي إليه؟"

صمت للحظات وحاول أن يقول كلاماً منطقياً:

"أعني أخبريني عن تلك الوكالة والخدمات التي تقدمها وصديقاتك وكيف شعرن بعدما اخترتك أنت"

تنهدت بعمق وأشاحت بوجهها وهي تستحضر ذكرى ليست بالسعيدة وقالت:

"لقد انضممنا للوكالة بعدما بلغن السن القانوني ولفظنا الملجأ .. زميلة لنا كانت أكبر منا هي من دفعتنا إلى هذا العالم .. كما تعرف أن

الوكالة تقدم خدمات خاصة للسائحين ورجال الأعمال ممن يمكنهم سداد التكاليف .. يوم أخبرنا مدير الوكالة أن هناك رجل أعمال يريد فتاة في سننا ولها نفس مواصفاتنا الجسدية لم نظن أن الأمر سينتهي بالزواج، وعندما أكد لنا المدير أن رجل الأعمال هذا يريد زوجة وليس مجرد خليلة لليلة واحدة لم نصدق أنفسنا .. وكانت المفاجأة أنك لم تكن رجل عجوزاً كما توقعناك"

تلقى نادر ما قالته زوجته وهو يجاهد ألا يبكي، زوجته المصون التي تجلس أمام ناظريه ليست فقط بنت زنا، بل هي محترفة بغاء، للمرة الأولى شعر بمدى حقارته وحقارة ما قام به طوال السنوات الماضية، للمرة الأولى أدرك أنه مجرد دمية رخيصة يتسلى بها من تحالف معهم من الجان، يتسلون به ويمعنون في إذلاله واحتقاره، أي مقابل يمكنه أن يرتق صدع نفسه وروحه؟

لكن أي نفس وأي روح، فلطالما جاهد نفسه التي ضجت بما يرتكب من موبقات، وروحه التي ماتت يوم عبر تلك البوابة في حجرة عارف، البوابة التي تربط عالمه بعالم الجن وأرضهم، ربما ما هو فيه الآن نزراً يسير مما يستحق.

تأمل ملامح نوال بعينين دامعتين، رغم هذا فهي لم تختر مصيرها، ولم تسعى إليه، بل اضطرت إليه مكرهة، على النقيض منه، فهو من قرر واختار، وليتحمل قراره إلى النهاية.

**(4)**

على الرغم من علمه ويقينه بأن لا أحد يراقبه، إلا أن تحركات سيد يغلب عليها القلق والحذر، يتلفت حوله كثيراً في اضطراب واضح، فقد انشغل بالبحث عن مخبأ نادر السري، بالتأكيد هذا المخبأ يقبع في مكان ما بداخل حجرته الخاصة، ومن الطبيعي أن يكون في الجزء المتواري خلف الستائر الثقيلة، ولهذا ركز سيد جهده في هذا المكان دون سواه.

تُرى هل ثمة باب خفي في أحد هذه الجدران الصامتة؟

وهل لها أن تبوح بسرها المكنون؟

معتمداً على حدسه ظل يتفحص الجدران بدقة، لم يكن الأمر هيناً، لكنه لم يبخل بجهده للحظة واحدة، فلما انتهى تيقن من براءة هذه الجدران من تهمة التستر على نادر، لا يتبقى أمامه سوى احتمالين اثنين، إما السقف أو الأرضية.

وبحكم العادة المصرية العتيقة التي تجعل من الأرضيات أماكن محببة لإخفاء ما يثمُن، فعليه أن يركز البحث في أرضية الحجرة لعل ما ينشده يقبع (تحت البلاطة) كما يقول المثل الدارج.

لكنها تبدو طبيعية للناظرين، وهذه الكسوة السميكة التي تغطيها لا تحمل أي مظهر مريب، عليه أن يرفع هذه السجادة الكبيرة وينظر

ماذا تحتها، اختار أن يبدأ من نهاية الحجرة، فمن المؤكد أن المخابئ تتواري بعيداً عن حرجة الدخول والخروج حتى لا تتكسف تحت وطأة الأقدام، توجه إلى نهاية الحجرة ووقف في منتصفها وهو يجول بعينيه هنا وهناك، انحنى وبدأ يجذب أطراف السجادة ويرفعها، كانت ثقيلة بحق، قبض عضلاته في قوة ضغط أسنانه وجذب السجادة بقوة ثم ثنى طرفها بسرعة ليمنعها من العودة إلى وضعها الطبيعي.

التفت عن يساره ليلاحظ أن جزءاً من السجادة مفصول عنها، فكر أنه من الممكن أن هذا الجزء انقطع لسبب أو لآخر رغم أنه لم يلحظه مطلقاً قبل هذه اللحظة، لم يعبئ له وجمع قوته ليرفع قدراً أكبر من السجادة الثقيلة، فإذا به يلاحظ أن القطع مستمر لمسافة لم يتخيلها، ترك مهمة رفع السجادة التي بدأت ترهقه رغم أن ما رفعه منها لا يصل إلى المتر الواحد فقط، واتجه إلى حيث القطع يرى إلى أين ينتهي.

انحنى يجذب هذا الجزء فلم يستجب له، حاول مرة ثانية فلم ينجح، فنزل على ركبتيه يفحص هذا الجزء لتتسع عيناه وتلمعان ببريق الفوز، لقد وجد الباب السري كما توقع في الأرضية، في أعماقه أُعجب بمدى براعة إخفاء هذا الباب، فهو دائماً أمام الجميع لكن يستحيل تمييزه وسط كسوة الأرضية السميكة.

تُرى كيف يفتح هذا الباب؟

لا يوجد في المكتب كله أي أداة معدنية يستخدمها لينزع هذا الباب، وبالتالي هناك وسيلة أخرى يستخدمها نادر، ربما للباب رتاج خاص يُفتح من خلاله .. فأين هو؟

بحرص شرعت أصابعه تسبح في لجة من شعيرات السجادة السميكة، لم يطل بحثه وتعلق شيء ما بأصابعه، إنه مقبض خفي من

نفس قطعة السجاد لا يمكن ملاحظة وجوده، أمسك به وجذب بقوة فلم ينفتح له الغطاء، وبعفوية قام بالضغط على هذا الجزء فسمع صوتاً معدنياً خافتاً يعرفه جيداً، صوت رتاج يُفتح، جذب المقبض فانصاع له الباب السري هذه المرة، انصاع واعترف طواعية بتكتمه على ما يقبع وراءه.

فتح الباب وعلى شفتيه ابتسامة زهو، ثم تركه ليستريح فوق الجدار، لاحظ أن الكسوة السميكة تعمل على ألا يترك الباب أي ذكرى له فوق الجدار، نظر إلى الأسفل وعلى ضوء الحجرة رأى الدرج المعدني، لكن الظلام يضج بالأسفل، لحسن الحظ أنه أتى ببعض الأدوات لتساعده في بحثه، واحد من هذه الأدوات كان المصباح اليدوي.

هبط سيد الدرج بحذر وهو يستند إلى الجدار بيد ويحمل مصباحه الصغير في اليد الأخرى، وقف يتأمل المكان من حوله وهو يطلق كل سُبة غليظة يعرفها لسوء الرائحة وعدم وجود تهوية، وكأنه دخل مكبّاً للنفايات الناتجة عن أحد مجازر الحيوانات والطيور المريضة، مكبّاً لا يُنقل ما فيه حتى سيطر العفن على ما به.

لم يكن سيد يتوقع أن يكون المخبأ بهذه القذارة، ربما تكون هذه الرائحة العطنة أحد وسائل الدفاع الذاتي عن المكان، عليه الانتهاء من مهمته قبل أن يموت اختناقاً هُنا.

طوال نصف ساعة كاملة نقل سيد كل المخطوطات والكتب والأدوات إلى الأعلى، لم يترك إلا ما بداخل البرادة الصغيرة، لأنه لم يعد ليحتمل أن ينقل جُثث الحيوانات، فقد نال كفايته من رائحة الموت العفنة تلك.

أنهى مهمته وأعاد كل شيء إلى ما كان عليه، في أعماقه اتخذ قراراً بالهرب، لم يعد الأمر يحتاج للكثير من الذكاء، فمن الواضح أن حرباً ضارية ستقع بين الرجلين في القريب العاجل، حرب جنودها لا يمكنه هو مجابهتهم أو حتى التفكير في ذلك، ومن المؤكد أن نادر سيكتشف أنه وراء ضياع أسراره، لكنه يثق أنه لن يجد الوقت أو الجهد الكافي ليبحث عنه وينتقم منه، فأمامه حرب شرسة لن يلتفت لسواها.

اتصل برقم هاتف الشيخ مهدي وانتظر حتى أجاب هذا الأخير فقال بثقة:

"تمت المهمة"

## (5)

**عاد نادر من إجازته القصيرة جدًا، عاد إلى مكتبه ليفاجئ بغياب مساعده سيد، حاول الاتصال به أكثر من مرة بلا طائل، أصابه بعض الارتباك فلأول مرة عليه أن يقوم بكل شيء بنفسه لحين ظهور مساعده.**

**لم يخطر بباله فكرة أن مساعده فرّ منه بلا رجعه، والأكثر خطورة أن هذا المساعد أقدم على خيانته بدم بارد وبمنتهى البساطة، وكأنه كان يتحين فرصة كهذه ليهرب بحياته أو ما تبقى منها بعيداً عن جحيم نادر مكتفياً بما ناله منه طوال سنوات، ربما لو حاول نادر في هذا التوقيت تحديداً الوصول إلى سيد بطرقه الخاصة لنجح في ذلك ولتمكن من تغيير مصيره .. لكن لا أحد يغيّر مصيره، كُلٌ يسير طواعية لما قُدِّر له.**

**ولأنه لم يتوقع أيّاً مما حدث في غيابه، فقد وجدها فرصة ليختلي بنفسه داخل مكتبه لبعض الوقت يفكر فيما آلت إليه حياته، زواجه من نوال ابنة عمه عارف والتي لا تدرك حقيقة قرابتها منه، لديه فرصة جيدة ليرتب أفكاره وينظر للأمور من زوايا مختلفة، ما عرفه من شيصبان أثار في نفسه بعض القلق المبهم، فهذا اللعين وسيده**

ناصورى ينويان إعداد ابنه ووريثه المنتظر ليحمل العهد من بعده بعدما يجعلا منه شيطاناً في قالب بشري، أي أب يتمنى لأولاده الخير كله، يرجو أن يتفوقوا عليه ويحققوا ما لم يتمكن هو من تحقيقه، هكذا هو حال البشر، لكنه بدأ يخشى من هذا الولد الكائن في علم الغيب، لسبب مجهول يظن أن نهايته تحل حين يشتد عود هذا الوريث، إذا تفوق ولده عليه فسيتحول إلى رجل بلا قيمة أو أهمية، فيستغني عنه ناصورى أو ربما تطير رأسه على يد شيصبان كما كان مع عمه، بُعدا لمن ظن أنه سيجد الفوز في حلف مع الجن والشيطان، أيرضى المرء أن يكون سبباً في نصرة عدوه؟

ربما تظن معي الآن بأن نادر يوشك على الشعور ببعض الندم على ما اقترفه، لو ظننت هذا فأنت واهم يا صديقي، فتلك النفس التي ارتوت من كل قذارات الحياة نسيت معنى الندم، اعتادت الدنس وخاصمت الطُهر.

بدأ عقله السقيم يتجه صوب أفكار أخرى لا علاقة لها بالندم من قريب أو بعيد، أفكاراً تدور كلها في فلك كيفية ضمان السيطرة على نوال وولده حين يخرج للحياة، فطالما هما طوع بنانه فلا خوف منهما، لكن عند أول بادرة شك في سلوكهما فسيتخلص من كليهما، لم يعد يريد زوجة، ولم يحلم يوماً بكونه أباً، من يحاول خيانته منهما فسيحق الموت على كليهما دون إنذار، حينها سينقذ عنقه التي يخشى عليها من تفوق ابنه عليه، وسيكون بهذا قد بدد أحلام ناصورى المتعلقة بهذا الابن.

خرج من بحر أفكاره المظلم إلى شاطئ الواقع المشمس، تناول هاتفه الجاثم فوق المكتب وحاول الاتصال بمساعده مرة أخرى، اكتشف أن الليل يوشك أن ينتصف، لقد استغرق في أفكاره لساعات طويلة دون أن يشعر.

قبل أن يكمل الاتصال اختل اتزان الحجرة للحظة، تقديماً لحضور أحد أسياده، فألقى هاتفه إلى حيث كان في ملل، لم يكن على استعداد لمقابلة أي كائن الآن، حتى أن غياب سيد المفاجئ أراحه من الخوض في أية أحاديث مع أي شخص، لكنه لا يملك حق رفض زيارة سادته، وقتما شاءوا وأينما أرادوا، زمّ شفتيه بضيق في انتظار القادم الذي لم يكن سوى شيصبان.

بعصبية متجلية على ملامح شيصبان المتجسد والتي ذاب عنها الجليد واكتسبت مرونة لترسم الانفعالات كما تفعل وجوه البشر، فظهر الغضب والعصبية عليه بشكل لا يخفى على من يراه، تأكد توتره عندما خرج صوته مضطرباً وقال:

"لقد وضعتنا في مأزق أيها البشري"

اندهش نادر، شيصبان لم يطلب منه الانزواء خلف الستائر كما هي عادته، ولم يطلب النزول إلى المخبأ السري، وتجسد على ملامحه وفي صوته كل آيات العصبية والارتباك المشوب بغضب مكتوم، حدق نادر في ذلك الواقف أمامه وهو يتساءل في أعماقه "أهو حقا شيصبان؟"

تابع شيصبان بنفس الأسلوب:

"لقد أخطأت خطأ جسيماً .. تذكر أنني قلت لك أنك في هذا الأمر وحدك"

شعر نادر أن هناك أمراً جللاً قد وقع، فقال وقد بدأ ينفض عن ذهنه الملل والضجر:

"على رسلك .. عن أي شيء تتحدث بالضبط؟!"

أجاب شيصبان بسرعة وغضب:

"انتقامك التافه من بنت السيناوي .. لقد انقلب السحر على الساحر .. بالطبع أنت لا تدري أي شيء مما حدث فأنت غارق بين ذراعي تلك الساقطة التي في بيتك الآن"

اشتعل نادر غضباً، رغم أي شيء فقد أصبحت نوال زوجته ولا يقبل أن تهان بهذا الشكل، فقال بغضب:

"إياك وأن تذكرها بسوء .. هي ضحية من ضحاياكم .. هي وأمها وكل من على شاكلتها لا يمكن لومهن على شيء"

هز شيصبان رأسه في حنق وقال:

"ليس هذا هو المهم أيها التعس .. الأمر أكبر منك ومن زوجتك و..."

قاطعه نادر بغضب صائحاً:

"إذن فقل ما لديك وكف عن ذكر زوجتي"

صمت شيصبان، حدق في نادر للحظات ثم قال:

"لقد فقدنا ابن طمياش"

لم يستوعب نادر ما سمعه جيدًا، فمال برأسه وقطب حاجبيه وقال في دهشة:

"ماذا؟!"

شيصبان وقد هدأت حدة كلامه بعض الشيء:

"كما سمعت .. لقد فقدنا ابن طمياش .. لا أثر له منذ الأمس"

قال نادر:

"ربما ذهب في أمر ما أو قرر الاختلاء بنفسه ...."

قاطعه شيصبان بضيق:

"أي هراء هذا؟! .. الأمر في عالمنا يختلف عن عالمكم .. ابن طمياش أسير هو وذلك الجني الأرضي التافه الذي سلطته على بنت السيناوي"

لم يستوعب نادر ما قاله شيصبان مجدداً، لم يفهم كيف لجني قوي كابن طمياش أن يقع في الأسر؟!، والأهم .. من هو ذلك القادر على أسره؟ قبل أن يسأل نادر بادره شيصبان قائلاً:

"لقد حذرتك من العبث مع من هو في حماية مهدي علام"

قطب نادر حاجبيه في ضيق وقال:

"هكذا إذن .. الآن تودون إلقاء الحمل كله على عاتقي أنا؟! .. قل لي يا هذا متى حذرتني ومتى عصيت أنا أوامرك؟! .. يبدو أنكم كمعظم البشر تلقون بالتهمة على أول من يمر أمامكم ولا تعترفون بالخطأ"

مال شيصبان للأمام وضرب سطح المكتب بغضب وقال:

"انتبه للسانك أيها التعس وإلا فسيتوقف عن الكلام للأبد في لحظة واحدة"

الطريقة التي ضرب بها سطح المكتب وصوته الهادر مع نظرة عينيه المرعبة جعلت نادر يتراجع في مقعده في رهبة حقيقة، ثم انتبه فجأة أنه مازال جالساً في حضرة شيصبان، فقام في ارتباك حتى أنه كاد يتعثر ودار حول المكتب وواجه المارد المتجسد وقال في محاولة منه لتخفيف التوتر:

"حسناً يا سيدي .. دعنا نهدأ قليلاً لنفكر في الأمر بشكل أفضل بعد أن تقص عليّ تفاصيل ما حدث".

ظل شيصبان واجماً للحظة ولم تذهب تلك النظرة المخيفة عنه، لكن سرعان ما لانت ملامحه بعض الشيء وعادت إلى قالبها الجامد وهو يقول:

"اجلس يا بن النجاتي وسأقص عليك ما حدث لابن طمياش"

جلسا متقابلين أمام المكتب، وانبرى شيصبان في قص ما لديه:

"لقد لجأ السيناوي إلى مهدي الذي لم يتأخر، جنوده أقوياء يعملون في خدمته منذ سنوات طويلة، على رأسهم مارد عتي لا يشق له غبار اسمه طرّاق، بالأحرى طرّاق هو لقب تميز به لأنه يطرق رؤوس أعدائه فيدمغهم، بسهولة أبطل تعويذتك المسلطة على الفتاة آية وأسر الجني خادم الطلسم، لم يهلكه احترام للعهد بين قبيلته وقبيلتنا، غير أن مهدي هذا وبمعاونة طرّاق اكتشفوا أمر العهد وأرسل الأخير جنوده وسقط ابن طمياش في قبضتهم، هذا يعني أن طرّاق حصل على مباركة قبيلته للتعدي على ابن طمياش وهم يظنون أننا نقضنا عهدنا معهم"

نزل الخبر على نادر الذي تجمد وهو يحاول استيعاب ما تنقله أذنيه، كان الأمر صفعة قوية له، بل ولسادته من الجن، بل هي ضربة قوية.

ضربة قاصمة.

# الفصل الثامن

# دارت الرحى

## (1)

مرت أيام قضاها مهدي في القاهرة مع رجب حتى تأكد الأخير أن حياته عادت إلى مسارها الأول، لم يتغير فيها إلا تقرّب آية إلى الله زلفى، فارتدت الحجاب والتزمت بصلاتها، فلما استقر الحال قرر الشيخ العودة إلى بيته في الإسكندرية.

مهدي رجل وحيد، توفيت زوجته بعد صراع مع المرض، قدر له الله عدم الإنجاب فلم يقنط، بعد رحيل زوجته لم يفكر في الارتباط بامرأة ثانية، خاصة مع عقمه الدائم وتقدمه في السن، واكتفى بالعيش لخدمة المحتاجين لمساعدته.

رجع إلى شقته التي تقع على مقربة من محطة السكة الحديدية، بعدما ابتاع وجبة الغداء في طريقه، لم يكن لديه من الطاقة ما يكفي ليقوم بتحضير الطعام، بعدما اغتسل ليزيل عن نفسه عناء السفر وتناول طعامه، أعد كوباً من الشاي الساخن كعادة معظم أهل مصر، وخرج إلى شرفته ليحتسي الشاي مقد مالت الشمس إلى المغيب، لم تكن شرفته واسعة، لكنها تحتوي طاولة خشبية صغيرة وثلاثة مقاعد يجلس مهدي فوق أحدها وهو مستند بمرفقه الأيسر إلى سور الشرفة.

ما حدث تالياً قد يجعلك تتهم الشيخ بالجنون، فقد ابتسم وقال مخاطباً لأ حد:

"مرحبا يا طرّاق"

لكن الرجل لم يفقد عقله، وإنما يتحدث إلى خادمه ومعاونه طرّاق، المشكلة هنا أن طرّاق لا يظهر أبداً للشيخ، وإنما يتحدث إليه فقط، يتحدث إلى عقله فلا يمكن لأي شخص غير الشيخ أن يسمعه، وكأنه صوت داخل أعماق الرجل يتردد، أو هو نوع من الحوار مع النفس، وقبل أن تتملكك الحيرة والظنون دعني أريحك، فسأتولى أنا نقل ما يقوله طرّاق إليك.

طرّاق:

"لقد اكتملت الصورة يا شيخنا .. ولم يعد هُناك أسرار تخفى علينا"

أومأ مهدي المحافظ على ابتسامته وقال:

"وأنا كُلي آذان صاغية"

سرد طرّاق قصة العهد كاملة منذ النجاتي الأول ووصولاً إلى نادر، وقد اعترف ابن طمياش بكل شيء يعرفه، وبالطبع لا داع هنا لأنقل لك حديثا أنت تعرفه سابقا.

انتهى طرّاق من سرده فعقب الشيخ:

"إذن فالأمر ليس قاصراً على ذلك المدعو نادر .. الأمر له جذور قديمة"

ارتشف بضعة رشفات من الشاي ثم قال:

"أخبرني يا طرّاق بما تنوون عليه مع قبيلة اللعين ناصورى"

أخبره صوت طرّاق:

"لم نحسم أمرنا بعد يا شيخنا .. فقد أقرّ الجني المُسلط على بنت السيناوي بأنه تلقى أوامره من نادر مباشرة وليس عن طريق أحد المردة من قبيلته، وابن طمياش أكد على نفس النقطة، وهذه النقطة تحديداً هي ما دارت حولها رسالة اللعين ناصورى إلى مليك قبيلتنا، وأرجع الأمر لكونه تصرف أحمق من بشري يخدمهم ولا يعلم بأمر العهد بين القبيلتين"

مهدي:

"إذن فهم يحاولون توجيه الاتهام إلى نادر فقط وتبرئة ساحتهم من تعمد التعدي على من هم في حمايتكم"

أجابه صوت طرّاق:

"بالضبط .. وهناك وسيلة كما تعرف يا شيخنا لنتأكد من الأمر"

قال مهدي بسرعة:

"تقصد القرناء؟"

طرّاق:

"نعم .. لكن لم يسمح مجلس حكمائنا باستجواب قرين المدعو نادر .. وأرجئوا الأمر لبعض الوقت"

سأل مهدي:

"ولماذا هذا التأجيل؟"

طرّاق:

"لقد قرر المجلس وضع كبار تلك القبيلة تحت المراقبة الشديدة وفي سرية تامة، ونجحنا أخيراً في وضع عيون لنا بينهم .. فإن توصلنا لكشف مكيدتهم فلا حاجة لنا في استجواب القرين، أما لو تبين صدق

أولئك المردة الكفرة وتأكدنا من أنه لا نية لديهم لنقض العهد فسنضطر إلى هذا الاستجواب"

مهدي:

"للأسف يا صديقي لا يمكنني تقديم المساعدة لك هنا .. لكني أدعو الله أن ينصركم على أولئك الكفرة الملاعين"

عقّب طرّاق:

"آمين"

ثم قال بسرعة:

"لكن يا شيخنا هناك أمر يجب أن أخبرك به"

"هات ما لديك" قالها مهدي بسرعة.

طرّاق:

"نحن لم نقطع دابر المدعو نادر تماماً لسببين .. الأول أن ناصورى يرفض أن ينقض ذلك العهد ويصرٌّ على أنه لا شان لنا بذلك، وما حدث خطأ سيعاقب بنفسه ذلك البشري عليه .. أما السبب الثاني فأنت لم تحصل على كل ما لديه من مخطوطات وكتب"

قطب مهدي حاجبيه وسأله في اهتمام:

"كيف؟ .. هل تلاعب بنا مساعده سيد؟"

طرّاق:

"لا .. ليس الأمر كذلك .. وإنما هناك بعض المخطوطات الخطيرة التي يمكن أن يستعملها نادر وتمنحه قوة كبيرة .. وهذه المخطوطات موجودة في بيت العائلة"

عقب مهدي:

"إذن فلتحضرها لنا"

طرّاق:

"لا يمكننا هذا .. بل ولا يمكن لأي شخص غير نادر أن يحصل عليها .. لأنها بداخل حجرة خاصة محمية بطلاسم يخدمها جان عتاة لا يرحمون .. ولا ينجو من عذاب هذه الحجرة إلا من تجري في عروقه دماء النجاتية"

صمت مهدي مفكراً للحظات قبل أن يسأل:

"وهل حصل نادر على هذه المخطوطات أم لا؟"

صوت طرّاق:

"حتى الآن لم يفعل .. ولم يحدث اتصال بينه وبين ناصورى أو شيصبان .. لو حدث هذه الاتصال فسأعرف من عُمّار مكتبه"

صمت مهدي مفكراً من جديد ثم قال:

"يبدو أنني سأحذو حذو مجلس حكمائكم .. فلننتظر لعلنا نرى ما يدبره أولئك الملاعين"

**(2)**

أن تقطع رحلة طويلة ومع كل خطوة تخطوها تشعر بأنك تبتعد بمسافات كبيرة عن نقطة البداية، ثم فجأة ودون مقدمات تنعطف في حارة جانبية لتجد نفسك تراجعت إلى نقطة البداية من جديد، كما في لعبة الأطفال الشهيرة السلم والثعبان، ترتقي في اتجاه القمة ثم وبفضل خطوة واحدة فقط تهوي إلى السفح من جديد.

أن تقرر التضحية بكل شيء، كل شيء بالمعني الحرفي للكلمة، دينك، أهلك، عملك، آدميتك، حياتك الماضية ومستقبل الجيد المرجو من أجل ضربة خاطفة تمنحك كل شيء، وتضرب في الأرض مختالا ظناً من أنك تقبض على الدنيا بقبضة يدك، وإذا بها تنساب كالزئبق يهرب من بين أصابعك ولا يمكنك حبسه مخما حاولت.

هذا هو شعور نادر، لقد تحرك خطوة واحدة ألقت به من فوق قمة عالمه إلى قاع القاع، آخر ما وصله من شيصبان كان أمر قاطع بعدم فعل أي شيء مهما كان ولأي من كان، حتى أنه نُهي عن الذهاب لمكتبه لحين حسم المشكلة التي وقعوا فيها، هذا الأمر والنهي حدث منذ أسابيع، تحول نادر إلى شركته وتجارته، كانت أموره مستقرة تماما

من هذه الناحية، لكنه لم يعتد المكوث في شركته، كذلك العاملين في الشركة لم يألفوا تواجده الدائم بينهم.

كل هذا جعل نادر يتميز بالعصبية وسرعة الانفعال، أضف إلى ذلك طبيعته الشخصية التي يغلب عليها الاندفاع وبعض التهور وعدم إجادة حساب عواقب الأمور وتخيل كيف هو الحال في الشركة بينه وبين العاملين معه.

أما على الصعيد الشخصي فقد كانت علاقته بزوجته تسير على حد سكين حاد، يتعامل مع نوال بحذر واحتراس، وفي كل مرة يطالع وجهها يرى في جبينها ماضيها الأسود، ويظل ذلك السؤال يتردد في عقله بلا جواب، ترى هل يمكن أن تعود نوال يوماً إلى ما كانت عليه ويتجرع مرارة خيانتها؟

لو دقق النظر في تصرفاتها لعرف الجواب بسهولة، هي ومثلها كثيرات لم تخض غمار الخطيئة برغبتها، وإنما تكالبت عليها الدنيا ببراثِنِها الحادة، لكن في كل يوم ترجو أن تنتشلها يد ما من مستنقع الكراهة التي تقاوم الغرق فيه، يوم أخبرها نادر بأنها من وقع عليها اختياره وسيتمم زواجه بها في نفس اليوم تمنت لو أن الحياة أخيراً التفتت صوبها وابتسمت، حُلمها أن تحيا حياة طبيعية في بيت هادئ مع زوج يظلل عليها بجناحه فتهب ما تبقى من عمرها له ولأبنائها يكاد يتحقق، لم يكن يعنيها أن نادر مليونير تطول يده كل ما يشتهيه، ما يهمها أن تفرّ من عالمها وتفرَّ بغير رجعة، عاهدت نفسها على ذلك وتهم أن تفي بالعهد.

المشكلة أن رجلاً كنادر لم تكن عيناه لترى تلك الحقيقة، فعاش يتقلب على نار ظنونه ووساوسه، ومع انقطاعه عن العمل الذي شغله

طوال خمسة عشر عاماً كاملة، أصبح من الطبيعي أن تتضاعف الوساوس والظنون بداخله في كل يوم.

شهر ونصف الآن وهو على هذه الحال، ثم زفت إليه نوال هذا الخبر المباغت، لقد نمى وليده في أحشاءها، لم يدر هل يفرح لهذا الخبر أم يتوجس!، فقد ازدادت ظنونه ظناً جديداً وهمومه هماً جديداً، وهل هو وريثه الذي ينتظره ناصورى ليخلفه في عهدهما؟!، وأصبح هذا الوريث يحصي الأيام وما أسرعها ليخرج إلى هذه الدنيا ويستعد ليضع اسمه في القائمة الطويلة التي تضم كل الورثة .. ورثة الدم.

دخل عقله في صراع عنيف مع نفسه وهواه، لقد ملّ هذه الحياة الرتيبة، ملّ عملاً لم يشغله طوال سنوات، ملّ المكوث بجوار زوجة لا يأمن خطاها، ملّ كل صباح وهو يستيقظ كموظف كسول يناهض ليذهب إلى العمل، يمرر ساعات النهار ليعود إلى بيت رتيب، ملّ أن ينشغل بمتابعة تلك البرامج والأفلام التافهة السمجة بمرافقة نوال طيلة الليل، ملّ حتى انفراده بها، ملّ كل ما يعيشه في روتين يومي يأبى أن ينكسر.

مَن يحسم الصراع يا ترى؟ عقله الذي يخبره بأن ينصاع للأوامر ولا يقدم على أي فعل جديد غير مأمون العاقبة، أم نفسه التي طاقت إلى عنفوانها وسطوتها وضجرت من كل شيء، ربما وقد اختبرت بنفسك طبيعة شخصية نادر يا صديقي فقد توصلت بنفسك لقراره الحاسم في صراعه الداخلي .. لا تخذلني فأنت أثق بقدرتك على فهم طبيعته ونفسيته.

لقد فاض كيله ونفذ مخزونه الضئيل من الصبر بعدما ضج بالحياة الرتيبة التي فُرضت عليه طيلة الأيام المارة، لن يسمع لصوت

عقله الذي يصر على طاعة أمر سيده، سيخطو بمفرده فهو لا يحتاج إلى شيصبان أو ناصورى، ولا يحتاج وجود ابن طمياش لينفذ ما يريد، فلديه العلم والأدوات التي تمكنه من فعل ما يشاء وقتما يشاء. لقد حسم أمره واتخذ قراره.

وهذه المرة سيخطط بدقة لما سيفعله حتى يجنب الوقوع في مزيد من المشكلات.

فهل سينجح؟

## (3)

كالمشتاق للقاء حبيب غائب وقد طال بعده دلف نادر إلى حجرة مكتبه الخاص بعد غياب قرابة شهرين كاملين، غمرته راحة نفسية محببة وهو يجلس خلف مكتبه في تؤدة كسلطان حقيقي، فتح ذراعيه على اتساعهما واستند براحتيه على سطح المكتب وكأنما يستقبل حياته التي سُلبَ منها بصدر مفتوح لتخترقه وتستقرّ في قلبه كما كانت.

استمر منتشياً بعودته إلى مقره ووكره وكأنه يتنفس هواءً نقياً بعدما عاش وسط عاصفة ترابية خانقة، يداعب خياله بذكرياته هنا وكمسافر عاد لبيته بعد سفر طويل بعيد.

تذكر أمر سيد فأطلق سبة وهو يتذكر محاولاته المستمرة للاتصال به دون جدوى طوال الفترة السالفة، لدرجة أن رقم هاتفه لم يعد مستخدماً، أصبح أمام احتمالين؛ أولهما: أن مساعده فرَّ وهرب غير مولي، والاحتمال الثاني: أنه تعرض لمكروه على يد جماعة الشيخ مهدي، وكلا الاحتمالين مُر.

شرع يسترجع تفاصيل وترتيبات الخطة التي وضعها، سوف ينقل أدواته وكتبه الخاصة من مخبأه إلى حجرة خاصة في الفيلا، وسيعمل

منها متسترا لبعض الوقت إلى أن تعود الأمور لنصابها، سيستخدم مخطوطاته وكتبه ليستعين ببعض الجن بعيداً عن قبيلة ناصورى، وأول ما سيأمرهم به هو مراقبة ذلك الرجل الذي قلب حياته رأساً على عقب .. مهدي علام.

لقد رست في أعماقه جبال من الكراهية والمقت تجاه الشيخ رغم أنه لم يره قبلاً، قبل هذا ظهور هذا الرجل كان هو القوي المهيب الذي يلين له الحديد وتجف تحت قدميه الانهار الجارية، لم يتعرض للذل والاحتقار من أسياده إلا بعد أن ظهر هذا الشيخ، كما أنه كان سبباً مباشراً في زواجه من نوال وهو الزواج الذي لم يرغبه ولم يعتده إلى الآن، سيتحين الفرصة المناسبة لينقض على هذا الرجل ويقضي عليه تماماً، وبهذا يضرب الضربة الحاسمة في الخلاف الذي أوقع فيه ناصورى وقبيلته، لأن سبب هذا الخلاف سيزول وللأبد، حينها لن يسمح لأسياده بإهانته أو احتقاره مرة أخرى.

تنهد بعمق كمن يسعد للإقدام على أمر جلل، قام من مكانه ودخل إلى ما خلف الستار الثقيلة، سار صوب ركن الحجرة كعريس يسير إلى عروسه في حفل زفاف، عند ركن الحجرة نزل على ركبة واحدة وضغط جزءاً من الأرض ليصدر صوت الرتاج، فتح الباب السري ووقف يتأمل الظلام المحبب إلى نفسه الضالة وقد افتقد هذا الظلام كما تفتقد الفيافي قطرات المطر في الصيف.

بحرص هبط الدرج لينزل إلى مخبأه ومقر قوته، توقف للحظات حتى تعتاد عينيه الظلام، أو ربما كان يستمتع بهذا الظلام ويستمد منه طاقته، المهم أنه قضى لحظات جامداً في الظلام كالتمثال قبل أن يتحرك بحرص ويمد يده إلى الجدار ناحية مفتاح الإنارة لينير المكان، وما إن فعل حتى تسمّر مكانه وقد فغر فاهه وجحظت عيناه في صدمة.

نقلت إليه عيناه الذاهلتان منظراً أطار عقله وألهب فؤاده حتى أحرقه، لقد اختفت أغراضه، الطاولة خالية من أي شيء، الخزانة مفتوحة ولا تحوي بين جانبيها سوى الخواء.

شلّته الصدمة لدقيقة كاملة، لم يتحرك طوالها قيد أُنملة، شحب لونه لدرجة مخيفة فتكاد تظن أنه سيسقط في مكانه مغشياً عليه، لكنه فجأة -وعلى عكس ما يوحي به المشهد أمامنا- اندفع بكل قوته صوب الخزانة الخاوية، نزع رفوفها واحدا تلو الأخر وألقى بها أرضاً بكل غضب الدنيا، عاد إلى الطاولة وركلها بقدمه لتسقط بدويٍّ تردد صداه في الشقة الخالية، ثم رفع كرسيه فوق رأسه ألقى به بعيداً بكل ما أوتي من قوة، اصطدم الكرسي بالجدار وسقط متحطماً في يأس، وقف نادر يلهث في صدمة وغضب غير مصدق لما حدث، يُكذِب عينيه متمنياً أن تنقلب الحجرة رأساً على عقب وتعود كما كانت بكامل محتوياتها، غير أن أمنيته هذه لم تتحقق.

لم يسعفه عقله الذي يغلي كمرجل منسي فوق نار لا تنطفئ بأي تصرف إلا أنه بدأ يتلو تعويذة نداء شيصبان، كان يصرخ بالتعويذة في جنون، كما المفترض كررها ثلاث مرات متتالية، انتظر ظهور سيده فلم يحضر، أعاد الكرة مرة ثانية وثالثة ورابعة، وفي كل مرة لا يلبي سيده النداء، فنطق بتعويذة مناداة ناصورى نفسه، فلم يجبه هو الآخر، أمسك برأسه وكأنه يخشى على رأسه أن تفرّ من فوق كتفيه، جاشت مشاعره وترقرقت عيناه بالدموع، نزل على ركبتيه أرضاً ولم يدع رأسه بعد، كما لم يتمكن من حبس دموعه كذلك.

بدأ عقله يستوعب الأمر، بدأ يستوعب أنه تلقى أعنف صفعة في حياته، هُزِمَ هزيمة نكراء وأين؟ في ملعبه ومرتعه، هزيمة لا يستوعب أبعادها ولا حتى كيف وقعت!، فقد أغراضه التي تمنحه القوة، تخلى

عنه أسياده في هذا الوقت الحرج، أصبح وحيداً مكسوراً مهملاً في زاوية ضيقة مظلمة في أصغر بقعة من الكون كله، هامشياً كورقة شجر سقطت في غابة حين حلّ الخريف فلم يلتفت لسقوطها أحد.

لكن هذه الصدمة لم تستمر طويلاً، كفكف دموعه وقام وقد اشتعلت خلجاته بكل ما في الدنيا من غضب، قرر الانتقام من ذلك الرجل الذي تسبب في كل ما حصل له، وفي أسرع وقت.

تذكر أن هناك باباً لم يطرقه .. باباً يظن أن خلفه سيجد نجاته.

اندفع صاعداً وقد حسم أمره.

## (4)

وكأن الزمان عاد إلى الخلف، وتراجع نادر إلى ماضٍ ليس بالقريب، لكن وكأن شيئاً لم يتغير في منزل العائلة في قريتهم الصغيرة، الملاذ الأخير لنادر، تذكر وهو في خضم صدمته حين اكتشف ضياع أدواته وأغراضه أن بعض المخطوطات لا تزال بداخل الحجرة الحصينة، حجرة عارف، البوابة السحرية التي تصل عالمه بعالم الجان، البوابة التي يعمل على حراستها من يثق فيهم كضمان أخير.

لم يهدر الوقت الكثير، قرر العودة إلى منزل العائلة ليستخرج ما ظل خافياً هناك، أقنع زوجته بأنه سيغيب لعدة أيام في مهمة عمل طارئة، وعدها بأن يعوضها بعد رجوعه عندما يتم مهمته، جمع بعض الحاجيات الضرورية بسرعة وانطلق إلى المقر القديم.

دار في البيت الخاوي من البشر وكأنما يستعيد ذكرى ما كان في هذا المكان قبل خمسة عشر عاماً، تحرك في أرجاءه ليستعيد روح السيطرة من جديد، وشعر وكأنه الملك داخل مملكته كما كان قبل أن تعطيه الدنيا وجهها الآخر، في قرارة نفسه اتخذ قراراً بالبقاء في هذه الدار لبعض الوقت، سينفذ مخططاته ثم يلوذ بالدار حتى ينتصر له ناصورى، وقد رتب أمره جيداً هذه المرة، ولا مجال للخطأ.

استقلت الشمس مركبها لتسبح مودعة نهاراً قد انقضت ساعاته، وحلّ ظلام يخشاه الناس، لكن ثمة من يجد راحته في الظلام، أضاع نادر الوقت في تنظيف الآنية التي استوطنها التراب ثم قام بإعداد كوب من الشاي حتى يمر وقت العشاء ويمكنه البدء في تحضيراته.

ولما حان وقت العمل دلف إلى حجرة الأسرار ثم أحكم باباها خلفه وفي يده بعض الأوراق، قلم جديد وأشياء أخرى في صندوق، وقف أمام المكتبة الضخمة التي باتت شبه خاوية، بنظرات خبيرة تعرف جيداً ما تبحث عنه جال فوق رفوفها، ثم انتقى مخطوطين أصليين كاد ورقهما أن يهترئ وبالكاد ترى الكتابة فوقه، جلس على الفراش الكبير ذي الأعمدة النحاسية وبدأ في قراءة ما وجد.

طوال ساعة كاملة ظل يراجع ما في الكتابين ويقارن بينهما، يدون بعض الأشياء ثم يقارنها مع المخطوطتين، ثم ابتسم أخيراً تلك الابتسامة التي تعني أنه وصل إلى مبتغاه، قام من مكانه وأعاد المخطوطين إلى المكتبة ثم أمسك الأوراق التي أحضرها، بدل بينها في يديه ثم اختار واحدة منها وترك البقية فوق الفراش الكبير، وقف مولياً ظهره إلى المكتبة وهو ينظر باتجاه الباب السري الذي يعرفه جيداً، لحظات سرح فيها مع ذكرياته خلف هذا الباب قبل أن ينفض عن نفسه هذه الذكرى.

رفع الورقة أمام عينيه وراجع ما فيها بسرعة، ثم جلس على ركبتيه وأخرج من الصندوق مبخرة عتيقة وأشعل نارها وأخذ يلقي فيها البخور ذي الرائحة الكريهة قبل أن يقول:

"بحق دائم وسَرُون وسْبِنْد .. أقسمت عليكم يا سِقنِل ويا بيتَعا ويا هَشْ رويا رعيا ثيب كُلٌ من جنود أبليس أن تحضروا في الحال"

كرر ما يقوله سبع مرات كاملة، ثم أتاه صوت عميق لا يدري مصدره يقول:

"حضرنا بحق دائم"

"حضرنا بحق سرون"

"حضرنا بحق سْبِنْد ... كُلنا جند أبليس العظيم .. لك من السمع والطاعة أيها الإنسي"

ابتسم نادر في ثقة وقال:

"تطيعونني ولا تعصون لي أمراً طوال هذه الليلة .. مهمتنا هي القضاء على رجل اسمه مهدي علام .. بعدها تحمونني لحين عودتي إلى هنا .. ثم تذهبون لا سلطان لي عليكم بعدها"

أجابه الصوت:

"لك منا السمع والطاعة"

قال نادر:

"هيا بنا .. فأمامنا رحلة إلى الإسكندرية"

انطلق مغادراً وصوب عينيه هدف واحد لا ثاني له، القضاء على مهدي علام، ولعلك الآن تتذكر ما رويته لك في بداية حديثنا.

# الفصل التاسع

# الحسم

## (1)

**الزمان: ليلة مقتل الشيخ مهدي .. عقب صلاة العشاء مباشرة.**

**المكان: ضاحية المريوطية، حيث مستقر الكثير من أصحاب الملايين.**

**نقف الآن أمام مسجد حديث الإنشاء، نراقب المصلّين وهم يغادروا بعد فراغهم من الصلاة، بالمناسبة .. هذا المسجد يطلق عليه مسجد آل النجاتي.**

**هل أدهشك ما سمعت؟ يبدو أنك نسيت أن لنادر أخ أكبر اسمه هاني، هاني وزوجته سارة وولديه، ولده البكر مُحمد، والثاني أسماه مصطفى تيمناً باسم والده، هل تذكرتهم الآن، بعد عودتهم إلى القاهرة محملين بما استطاعوا نقله من كنز النجاتي قرر هاني الاتجاه إلى العمل الحر، أسس سلسلة مطاعم راقية، هذه السلسلة أصبح لها فروع في عدة محافظات الآن، وأسست سارة متجراً لملابس النساء بعدما اعتادت التردد على تركيا وإيطاليا وفرنسا وصار بينها وبين بعض دور الأزياء المرموقة شراكة خاصة، وتضاعف حجم الثروة التي بين أيديهم بدرجات كبيرة، ومنذ بضعة سنوات أنشأ هاني هذا المسجد**

ليحمل اسمه عائلته لعله بذلك يساهم في محو ما اقترفوه طيلة عقود وعقود.

لا تدري كيف يقع هذا التناقض الغريب بين شقيقين من نفس الأب والأم، ربما هي الدنيا، تجمع كل المتناقضات وتتسع لكل الغرائب، كُل من الشقيقين زادت ثروته، فالله يرزق المؤمن والكافر على حدّ سواء، لكن طريقي الشقيقين المفترقين باتا متوازيان لا يمكن أن يتقاطعا.

ها نحن أمام المسجد، انظر إلى ذلك الشاب الذي يخرج من الباب الآن، نعم، ذلك الشاب طويل القامة المائلة بشرته للسمرة ذو اللحية الخفيفة المهذبة بعناية، والذي تدل ملابسه على ثراء واضح، ذلك هو مُحمد بن هاني النجاتي، شاب متدين في السنة النهائية من دراسته في كلية التجارة.

نقترب منه بسرعه وهو يخرج من المسجد وينحرف يميناً متجهاً إلى سيارته الرياضية، يدلف إلى السيارة ويهمّ بتشغيل محركها قبل أن يتوقف ويلتفت حوله يميناً ويساراً في قلق وهو يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

عفوا .. لقد نسيت أنك لا ترى ولا تسمع طرّاق.

دعني أتولى هذا الأمر واعذر لي نسياني، الحقيقة أن طرّاق كان قد حضر بداخل سيارة محمد وحياه بتحية الإسلام، طبعاً مُحمد مثلك لا يرى طرّاق لكنه يسمعه، لهذا ارتعب وبدأ في التعوذ.

طرّاق:

"لا تهلع يا مُحمد .. ما جئتُك إلا في سلام"

ازدرد مُحمد في صعوبة وقال بخوف لم يزُل:

"من أنت؟ .. أين أنت؟ بل ما أنت؟"

طرّاق:

"يمكنك مناداتي طرّاق .. أنا هنا في المقعد المجاور لك .. وأعتقد أن شاباً بمثل اطلاعك يمكنه فهم ما أكون .. أكرر ثانية ما جئتُك إلا في سلام"

استوعب مُحمد الأمر بسرعة، فكر في القفز من السيارة لكنه عدل عن تلك الفكرة التي لا طائل منها، تذكر أنه أتمّ صلاته ووتره فهو في معية الله وحفظه، هدأت روحه وروعه قليلاً فقال مرتبكاً:

"حسنا يا طرّاق .. ما الذي تريده مني؟"

أتاه الجواب في صيغة سؤال:

"هل تود أن تقوم بعمل يقربك إلى الله أكثر ويعود بالنفع على عموم الناس والمسلمين خاصة؟"

صمت مُحمد للحظة ثم قال:

"ألا ترى أنني أتحدث مع فراغ؟ الأمر غير طبيعي أليس كذلك؟"

طرّاق:

"دعك من هذه الفرعيات .. اعتبرني صوت عقلك .. صوت ضميرك .. لأنني وبالمناسبة لا يسمعني أحد سواك، بمعنى لو جئتك وأنت في وسط حشود غفيرة فلن يراني أو يسمعني سواك"

لم يعقب مُحمد، كان الأمر صعباً وغير مستساغ، حتى وإن أمكنه فهم ما يحدث، وكيف يألف لقاء مع واحد من الجن، الشيء المؤكد أن هذا الضيف الخفي لا يود إيذاءه، لو شاء لفعل بمنتهى البساطة، لكنه يخبره عن فعل خير بشكل أو بآخر، هذه النقطة تحديداً يصعب

عليه ابتلاعها، منذ متى يعمل الجن فيما ينفع الناس؟ الجن مثله مثل البشر ممنوع على كل جنس الاتصال بالآخر، وحد علمه أن هذا الاتصال لو حدث فإنما يحدث فيما يضر الناس، هل هو فخ ومكيدة؟

قطع طرّاق استرساله في أفكاره قائلا:

"لم تُجب سؤالي بعد؟"

مُحمد:

"وهل لي أن أعرف تفاصيل الأمر؟ والأهم من كل هذا أخبرني أولاً .. لماذا أنا تحديداً؟"

طرّاق:

"حسناً .. سأجيب سؤالك الأخير أولاً .. لماذا أنت دون سواك؟ الأمر بسيط .. فما نود منك القيام به لا يقدر عليه إلا من تجرى في عروقه دماء عائلة النجاتي"

مُحمد:

"لم أفهم بعد .. ثم من أنتم؟"

طرّاق:

"قلت لك دعك من الأمور الفرعية .. فقط أجب سؤالي هذا .. لو علمت أن هناك مشعوذاً يستعين بجن كافر ليضرَّ بالناس ويقيم الموبقات في الأرض، وأنك الوحيد القادر على وقفه وبتر دابره فهل تتردد؟"

مُحمد:

"ومن أين لي بالقوة لمواجهة رجل كهذا .. اسمعني جيداً .. ربما تمكنت من إتمام حفظ القران الكريم وأنا في سن صغيرة، لكنني لستُ شيخاً ذا علم لأقدر على ما تطلبه"

طرّاق:

"أعلم تمام العلم من تكون وكيف تكون يا مُحمد .. صدقني الأمر ليس بالعسير .. فقط ستدخل إلى بيت الرجل ومعك تعويذة خاصة سأتلوها عليك، تكررها ثلاثا ثم تخرج .. لا أكثر من هذا ولا أقل"

قال مُحمد بسرعة:

"طالما الأمر بهذه البساطة فلِمَ هو عصي عليك؟"

طرّاق:

"أخبرتك أن هذا المكان لا يسمح لأحد بدخوله إلا من يحمل دمائكم في عروقه"

فكر مُحمد للحظات ثم اتسعت عيناه وقد توصل ذهنه إلى حقيقة مخيفة، فقال:

"طالما لا أحد يدخل إلى هذا المكان إلا من ينتمي إلى العائلة فهذا له معنى واحد .. ذلك المشعوذ أحد أفراد عائلتنا .. هل هذا ما تود قوله؟"

قال طرّاق:

"حسناً .. لقد أصبت كبد الحقيقة .. دعني أسرد لك كل التفاصيل التي جمعتها ثم أعطني قرارك بعدها .. سأخبرك الحقيقة كلها دون زيادة أو نقص، لكن ثق أن الحل في يديك أنت وحدك"

ثم انطلق يكشف له أسرار عائلة النجاتي، الأسرار التي لم يكشفها له والده يوماً، كلما تقدم طرّاق في السرد كلما تضاعفت دهشته

عشرات الأضعاف، تسلل إلى روحه الملتزمة بالغضب لوجود جزء طالح إلى هذا الحد في عائلته، غضب تنامى حتى بدأ يطغى على دهشته، لكنه لم يكن كافياً ليحسم قراره.

انتهى طرّاق من كشف كل الأوراق أمامه، ويطلب منه الآن مواجهة عمه الذي لا يتذكر حتى ملامحه أو صوته، عمٌ غاب وانقطعت أخباره منذ كان هو طفلاً، سمع والديه مرات قليلة يأتون على ذكره وغلب الظن عليهما بأنه قد هلك، لكنه لم يفعل والمطلوب منه أن يتواجه معه، يدخل إلى حجرة الأسرار والبوابة بين العالمين ويبطل حمايتها ويترك طرّاق هذا ورفاقه يدمرون البوابة ويقطعون الاتصال بين العالمين، وبالطبع قبل ذلك يقومون بالقضاء على عمه الذي امتهن السحر، يا لهذا المأزق.

طلب من طرّاق أن يتركه ليفكر فأخذ منه الأخير وعد بأن يظل الأمر سراً ولا يبوح لأي من كان بما دار بينهما، وأمهله حتى ليلة الغد ليعرف قراره النهائي .. فالوقت أصبح أمراً خطيراً في هذه المرحلة.

## (2)

**الزمان: بعد مقتل الشيخ مهدي علام بسويعات قليلة.**

**المكان: أرضاً غير الأرض.**

**أرضاً من صخر أسود يشبه الجرانيت الغير مصقول، ليست حادة وكأن هناك مَن عَهِدَ بتمهيدها، هي منطقة جبلية ترتفع فيها قمم شامخات من صخور سوداء هي الأخرى، يمكنك اعتبار أن هذه الطرق الممهدة وإنما شُقت وسط الجبال شقاً.**

**سماء لونها أحمر قاني نبيذية، ليس بها سُحب كتلك في الأرض الطبيعية، وإنما هي دخان أبيض مشوب بالأسود، وسط الجبال نُحتت صروح وبيوت، قصور وقلاع، ولا يخلو الأمر من الكثير من الكهوف المتناثرة في كل مكان، جو عام كئيب لا يألفه البشر، لأن هذه الأرض ببساطة هي أرض يسكنها غير البشر.. الجان.**

**نتحرك بسرعة صوب قصر مهيب يحتل قمة واحد من الجبال، هناك حدث خطير يجب ألا يفوتنا، ها قد وصلنا إلى القصر، القصر ما هو إلا محكمة المدينة، لو شئت استخدام هذا التشبيه، ندخل بأقصى سرعة ونقطع الساحة الخارجية الواسعة إلى المبنى الكبير،**

نجتاز ردهة طويلة على جانبيها حجرات كثيرة لا داع هُنا لاستعراضها أو وصف ما فيها، ننتهي إلى ساحة داخلية متسعة تشرف على خمس ردهات .. الردهة التي قطعناها واحدة منهن، علينا أن ندخل هذه الردهة هناك على اليمين، هذه الردهة هي الأقصر بين الردهات الخمس، لا يزيد طولها عن الأمتار الثلاثة، ثم تنتهي بباب ضخم يبلغ بعرض أمتار ثلاثة وارتفاعه عشرة أمتار على الأقل .. يبدو أنني مع العجلة التي أتحرك بها قد نسيت أن أخبرك أن السقف هنا مرتفع، مرتفع إلى ما يزيد عن ثلاثين متراً كاملة، بالمناسبة الباب الضخم الذي نقف أمامه الآن هو في الحقيقة الباب الصغير لقاعة المحكمة التي سندخلها الآن، أما بابها الكبير فهو في الجهة الأخرى من القاعة وهو مخصص لدخول القاضي، لا تستعجل أو تسأل عن أي تفاصيل فسأصف لك كل شيء في حينه، الآن فلندخل القاعة.

القاعة مربعة الشكل، طولها في حدود المائة متر، ارتفاعها كما سبق وأخبرتك يزيد عن ثلاثين متراً، ولا ترى أية أعمدة تحمل السقف الكبير فوق رؤوسنا، لا تسألني عن تقنية بناء هذا الصرح .. أنسيت أن من الجن من هم بارعون في فن العمارة؟ تخيل ما يمكنهم بناؤه.

نعود إلى القاعة، الجدران عن اليمين واليسار مزينة بنوافذ طويلة ملونة كتلك التي تزين جدران الكنائس الأوروبية الضخمة، الجدار الثالث يضم الباب الصغير الذي دخلنا منه، الباب في أقصى يمين القاعة بالمناسبة وليس في منتصفها، أما الجدار الأخير فبه ثلاثة أبواب، اثنين لهما نفس حجم وشكل بابنا ويتوسطهما الباب الكبير الخاص بالقاضي، باب عرضه في حدود الأمتار السبعة وارتفاعه عشرين متراً، ثم أمام هذه الأبواب منصة القضاء الضخمة وبجوارها منصة مفردة صغيرة، وعلى بُعد عشرة أمتار يوجد حاجز من برامق

حجرية من نفس الأحجار المستخدمة في تشييد القاعة، ارتفاعه في حدود متر ونصف المتر فقط، هذا الحاجز يفصل منصة القضاء عن مقاعد الحضور التي عليك أن تتخيل عددها، هي مرتبة بشكل مدرج أعلاه هنا حيث نقف وأسفله عند الحاجز وبينهما ممرات كثيرة للحركة، ليس هناك قفص للمتهمين كما في قاعات محاكم البشر، ولا قوات حراسة تأمين على جانبي القاعة، الأمور هنا مختلفة.

أما الحاضرون فهم جميعاً من الجن الناري، وكما تعلم يا صديقي أن الجن الناري لهم أشكال متعددة مختلفة، فبعضهم له أطراف أكثر من الأخرين وبعضهم له عين واحدة في منتصف جبينه، قد تجد بينهم من نبت له قرن أو اثنين أو ثلاثة قرون، وقد تجد منهم من لا قرون له على الإطلاق، حتى أحجامهم مختلفة متفاوتة، القصير منهم طوله متران فقط، وتتراوح الأطوال حتى ثمانية أو تسعة أمتار طولاً، حاول أن تصنع بمخيلتك أشكالهم لأنه لا وقت لديّ لذلك فالمحاكمة ستبدأ الآن، سأتحرك لأجلس في مكاني قرب الحاجز.

تُفتح الأبواب الثلاثة في آن واحد بصرير حجري لم تعرفه أذناك من قبل بالتأكيد، يدخل من البابين الصغيرين جند من الجن الناري القوي الطويل، يصطفون حول منصة القضاء في تتابع أنيق، يقفون منتصبين وفي يمين كل منهم رمح حاد، ثم يدخل واحد له نفس حجم الحراس ويقف خلف المنصة المنفردة، أود تشبيهه لك، اعتبره ممثل النيابة الذي يقف بجوار المنصة في عالمك، لكنه هنا يعمل كحاجب المحكمة، هنا لا توجد نيابة، ولا يوجد محامين، قلت لك الأمور هُنا مختلفة.

يصيح الحاجب بصوت جهوري:

"ليقف الجميع لاستقبال القاضي راعي الأمانة"

يقف الجميع، يدخل القاضي، جني عملاق قوي مهيب من الجن الضوئيين، وكما تعرف يا صديقي أن الجن الضوئيين جن مسلم، أقوى أنواع الجن على الإطلاق، يمكن للواحد منهم أن يقتل ألف جنى من الجن الناري بضربة واحدة، المهم أنهم يشبهون البشر في هيئتهم بدرجة مدهشة، يدخل القاضي ويتخذ موضعه خلف منصة القضاء، يحيي الحاضرين بتحية الإسلام ويرد معظم الحاضرين تحيته، يجلس فيتبعوه في تناسق ونظام، يلتفت إلى حاجبه فيصيح هذا الأخير:

"نزاع قبيلة الملك الأبيض والملك طُلمش .. فليتقدما"

قام من بين الحاضرين اثنان كانا يجلسان كل منهما في جانب، تقدما إلى الحاجز الحجري ووقفا في احترام شديد، قال القاضي:

"في البداية يجب أن أذكركما ونفسي بأنه لا مجال للكذب أو الخداع هُنا، من يكذب فيحق هلاكه في الحال، عليكم تنفيذ حكمي دون مناقشة، وعليّ ألا أظلم أي منكما مهما كانت الاعتبارات .. تكلم أيها الملك الأبيض .. أنت من طلبت انعقاد هذه الجلسة"

تكلم الملك الأبيض وكان هو الواقف يمينا:

"سيدي القاضي .. أنت تعلم بمعاهدة السلم بين قبيلتي وقبيلة الملك طُلمش .. واحد من عشيرته له عهد من بني البشر، وبسبب هذا العهد تعرض أحد من نعاونهم بأمر الله للمشكلات .. ثم قُتل هذا الرجل قبل ساعات قليلة"

التفت القاضي إلى الملك طُلمش وسأله:

"أهذا صحيح أيها الملك؟"

أجاب طُلمش:

"بلى يا سيدي القاضي .. لا يكذب الملوك إذا ما سُئلوا"

سأله القاضي:

"وبأي حق تقتل عشيرتك رجلاً من الإنس؟"

طُلمش:

"لم ترتكب عشيرتي هذا الجُرم .. ولو فعل واحد منا فسيحق عليه عقابك"

القاضي:

"أفصح أيها الملك عن كُل التفاصيل"

طُلمش:

"اسمح لي يا سيدي أن أُقدم ناصورى لكي يشرح الأمر، فهو المعني بهذا النزاع"

قال الأبيض:

"ولتأذن لي يا سيدي بتقديم طرّاق .. فهو الطرف الثاني أمام ناصورى"

أشار القاضي براحته بما معناه أن يتراجعا؛ فعاد كُل منهما إلى مقعده الأول وتقدم طرّاق وناصورى ليحلا محلهما أمام الحاجز.

القاضي:

"تكلم أولاً يا طرّاق"

طرّاق:

"أنا وعائلتي نُعين بإذن الله رجلاً صالحاً على فعل الخير وإبطال ما يفعله المفسدون، تعرض بعض البشر ممن هم في حماية ذلك الشيخ

للإيذاء على يد جني ترابي يخدم ناصورى وعهده مع البشري، وقع هذا الجني في أسرنا، استجوبته وفهمت منه أن البشري لم يستأذن ناصورى في إيذاء أولئك الناس، لم نعتد عليه وحبسناه، وكنا في حالة ترقب مع قبيلة بني طُلمش لنتأكد من نواياهم، في هذه الفترة عكفت على استجواب العمار قرائن كُل من له صلة بالأمر ليتكشف أمامنا ذلك العهد الفاسد بين ناصورى وبين البشري، وهذا الأخير لم يتورع عن تسخير جن ترابيين وقام بقتل الشيخ الصالح بدم بارد .. بعد كل هذا نطلب منك يا سيدي الإذن بالقصاص لدم الشيخ من ذلك البشري الفاسد."

التفت القاضي نحو ناصورى وسأله:

"أتجد فيما قاله طرّاق الصدق ولا غير سواه يا ناصورى؟!"

قال ناصورى مجيباً:

"بلى يا سيدي .. لا كذب في حضرتك .. غير أننا لم نكن طرفاً فيما حدث للشيخ، لا بالتوجيه ولا بالأمر الصريح، ولم يقتله أحد أفراد عشيرتنا .. إنما سخر البشري بعض الجن لقتل الرجل بإرادته الحرة المطلقة"

سأله القاضي:

"أتُقرُّ بتعاهدك مع هذا البشري إذن؟"

صمت ناصورى للحظة تبادل فيها نظرة حقد مع طرّاق قبل أن يقول بحسرة:

"بلى يا سيدي .. لا كذب في حضرتك"

سأل القاضي:

"هل ثمة ما يود أحدكما قوله؟"

تبادلا نفس النظرة مرة أخرى قبل أن يلتفتا نحو القاضي ويقولا في نفس الآن تقريباً:

"كلا يا سيدي"

قال القاضي:

"فلتعودا إلى مكانيكما"

عادا وساد الترقب وتعلقت العيون كلها بالقاضي الذي صمت مفكراً قبل أن يقول:

"باسم الله تعالى الحق .. هو الحق وقوله الحق .. فقد حكمت على ناصورى وكل أتباع عهده مع البشري بالحبس مسلسلاً في الأغلال المحفوظة بقوة أسماء الله الحسنى تسعاً وتسعين قيداً لكل منهم، يُحل كل شهر قيد بإذن الله، ويتم نقض ذلك الميثاق بينهم وبين البشري في الحال، وكما تعاهدتم بإرادتكم ستنقضون العهد بإرادتكم في مهلة يوم واحدمن اليوم لتخبروا البشري بهذا وتنهونه عن محاولة تكرار ما فعل، ثم لا يحق لأي منهم الاتصال به أو المساس به من قريب أو بعيد، ويكون حساب ذلك البشري عند ربه .. كما أمنع طرّاق ومعاونيه من المساس بذلك البشري أيضاً، لا يحق لنا معاقبته على أفعاله ولا نختلط بالبشر فيما يغضب ربنا القدير، وبعد هذا الحكم لا تعتدي قبيلة على الأخرى امتثالاً لميثاق السلم بينهما .. هذا ولله الأمر كله أوله وآخره"

قالها وأنهى الجلسة وقام مغادراً فهب كل الحاضرين وقوفاً، خرج القاضي وتبعه حاجبه في حين لم يتحرك الحرس، بدأ الحاضرون في الانصراف، ظل طرّاق يراقب ناصورى ولم يهمّ بالمغادرة، رأى الأخير يميل على شيصبان ويسر إليه بعض الكلمات، قبل أن يتبادلا نظرة الحقد والكراهية للحظات، انصرف ناصورى فهمّ طرّاق بالمغادرة وهو يترحم على الشيخ مهدي علام.

## (3)

الزمان: الليلة التالية لمقتل الشيخ مهدي علام.

المكان: بيت النجاتي.

داخل حجرة الأسرار، وفوق الفراش الكبير تمدد نادر كسكير غاب عقله، أو كمدمن في حالة انتشاء زائفة، مشبكاً أصابعه تحت رأسه وهو يسترجع ما فعله بالشيخ، وكيف سحر بصره وصور له أماكن غير موجودة، كيف نكّل به وعذبه قبل أن يقتله، لكنه كان يشعر ببعض الغضاضة .. أتدري لماذا؟ لأنه لم يتلذذ بتعذيب الرجل لفترة أطول، وإلا لدخل عليه وقت الفجر فيتركه الجان خدمه لهذه الليلة فقط.

ممدداً في استرخاء محارب عاد ظافراً بعد معارك طاحنة، ينتظر قدوم شيصبان يهنئه بإنجازه الكبير، ولمَ لا، ربما يأتيه ناصورى بنفسه ويقدم له نوط الشجاعة والإقدام، هذه المرة لن يتلو تعاويذ النداء لأي منهما، فقط سينتظر، وبالتأكيد سيأتي أحدهما على الأقل.

لم يعد يحتاج لتسخير بعض الجان في مهام محددة كما فعل في جريمته لقتل الشيخ، لم يعد يحتاج لكتابة تعويذة خاصة في كل مرة يود فيها القيام بأمر لا يقوم به بشر، لأنه ينتظر أن يعيد له ناصورى جنده وخدمه، ويمنحه مساعداً خاصا بدلاً من ابن طمياش.

طوال هذه الليلة وهو على هذه الحال، يخالجه شعور الزهو والظفر، حتى أنه اتصل بنوال وأكد لها أنه أتمّ عملاً هاماً للغاية

سيؤمن مستقبلهما ومستقبل ابنهما بشكل كبير، وأخبرها بأنه سيعود في أقرب وقت بعد إنهاء بعض الترتيبات.

لم ينس وهو في غياهب النشوة أن يفكر في بعض الأمور المُلِحّة، بعد اختفاء سيد أصبح لزاماً عليه أن يوفر مساعداً بديلاً، مساعداً خاصاً من تلك النوعية التي تنفذ ما يطلب منها دون أن تسأل عن السبب، ودون أن يتدخل في ما لا يعنيه، مساعداً بنكهة إجرامية لا يتردد عن تلك الأمور التي ستطلب منه.

بما أنه في قريته بين جدران الماضي، ربما يزور القرية المجاورة ليلتقي بأحد أفراد عائلة زهران مساعد عارف، ربما يجد بينهم ضالته، فهم على مقربة من العهد طوال سنوات وسنوات، ربما يقوم بهذه الزيارة في نهار الغد.

كل مشكلاته زالت، كل حروبه انتهت، خرج فائزاً غانماً لأنه يستحق عن جدارة ذلك اللقب الذي أطلق على نفسه (السلطان)، ما أجمل أن تنعم بالنوم بعد انتصارك الكبير وفي مقرّ لا يقدر أي مخلوق على اختراقه، شعور الأمان والزهو والانتصار جعل سلطان النوم يتسلل إليه في سكينة، غاب في نوم عميق يُسمع غطيطه.

استيقظ في منتصف نهار اليوم التالي، تململ في فراشه وهو يتقلب ليرقد على ظهره، أجفل حين رأى شيصبان المتجسد يجلس بجوار الفراش، وتساءل في نفسه منذ متى يظهر الجان في وضح النهار؟ اعتدل جالساً وأسند ظهره إلى ظهر الفراش النحاسي وقال وهو يغالب تثاؤبه:

"مرحباً بك يا شيصبان"

حدجه شيصبان بنظرة جامدة وقال:

"يبدو أنك لم تتعلم يوماً أن تنصاع للأوامر"

بدأ عقل نادر يسترد نشاطه وصفائه، واضح أن ضيفه لا يود إلا الدخول في لُبّ الموضوع مباشرة، استعاد نادر بعض زهوه وهو يقول:

"أنت تعرف السلطان جيداً يا سيدي .. عندما أُقرر شيئاً فلا توجد قوة تمنعني عن تحقيق هدفي"

انتظر تعقيبا من شيصبان فلم يجد، كان الأخير جامداً بارداً يتأمل نادر في ثبات، أوحى عقله إليه بأن شيصبان ينظر إليه في إعجاب لما فعل، فقال:

"لكنك لم تُخبرني برأيك في تلك الخطوة الحاسمة" ثم ابتسم وأردف:

"أظن أن ما قمت به يضع حداً للخلاف بينكم وبين تلك القبيلة التي كانت تتعاون مع مهدي علام .. أليس كذلك؟!"

كما هي العادة لم يظهر أي انفعال على وجه شيصبان الذي قال:

"بلى .. لقد فعلت .. ربما لا تدرك كم كانت فعلتك هامة وضرورية في وضع حد لذلك الخلاف بيننا وبينهم."

قام نادر ليجلس على حافة الفراش في مواجهة شيصبان وقد اتسعت ابتسامته لتشمل وجهه كله وقال متصنعاً الولاء:

"أنا دائماً في خدمتكم .. فكرت كيف أُنهي هذا الخلاف الذي أوقعتكم فيه .. وها قد جنيتم نتيجة ما قمت به"

شيصبان:

"أحسنت .. لكن أخبرني كيف واتتك تلك الفكرة العبقرية؟"

ملأ نادر صدره بالهواء ثم اندفع قائلاً:

"لم يكن الأمر عسيراً لهذه الدرجة .. المشكلة وقعت لأن تلك القبيلة تعمل في خدمة ذلك الرجل .. فلنُنه العلاقة بينهم ليزول الخلاف .. الأمر بسيط لكنكم لا تنظروا للأمور كما أنظر لها أنا"

كان الفخر والغرور يقطر من كلماته بشكل فج، لكن شيصبان تجاهل كل هذا وتصنع عدم الاهتمام، قام من مقعده وربت على كتف نادر وقال:

"أحسنت صنعاً يا بن النجاتي، لقد أنهيت مشكلتنا معهم بالفعل .. لقد أنهيت كل شيء حقاً"

قالها واستدار ناحية الباب، فقام نادر وأمسك بذراعه وقال متسائلاً:

"انتظر .. هل سترحل بهذه السرعة؟ ألن نقوم بالترتيبات الجديدة معاً؟"

التفت شيصبان إليه وهو ينزع ذراعه من بين يديه وسأله:

"ترتيبات جديدة؟ أية ترتيبات؟"

أجاب نادر:

"الترتيبات العادية .. مساعدي الخاص وخدمي وما إلى هذا؟!"

ابتسم شيصبان في مرة نادرة نرى فيها ملامحه تنفعل، ثم تحرك ناحية الباب وأدار المقبض قبل أن يتوقف ويلتفت إلى نادر، وفي هذه اللحظة تبدلت ملامحه، عاد وجهه إلى طبيعته، ونمت قرونه الطويلة في سرعة عجيبة، وتراقصت النار في مقلتيه وهو يقول:

"قُلت لك قد انتهى كل شيء .. انتظر مصيرك وقدرك المحتوم"

أطلق زفرة من دخان ثم قال وهو يضغط حروفه:

"أراك في الجحيم أيها الإنسي"

قالها ثم خرج وصفع الباب خلفه بقوة.

**(4)**

**الزمان: عصر نفس اليوم بعد رحيل شيصبان.**

**المكان: بين النجاتي.**

**أصاب نادر الجنون، فكر فيما يعنيه كلا شيصبان كثيرا، وفي كل مرة يتوصل عقله إلى نفس الجواب، لقد تخلوا عنه، لكن ما السبب؟**

**هل هذه هي مكافئته بعد كل ما قدم لهم؟**

**كم أهلك أرواحاً بريئة كقرابين لهم وللشيطان، كم غرق في الرذائل والموبقات إرضاءً لهم، كم أصاب الناس بالويلات والمصائب، كم وكم وكم ؟!.. والآن يتركوه كقطعة قمامة لا تساوي شيئاً.**

**أكثر ما أرعبه في كلام شيصبان هو عبارة "انتظر مصيرك وقدرك المحتوم"، ما الذي يقصده بقوله هذا؟ هل تخلوا عن حمايته تماماً؟ أحضَر كل ما في المكتبة من مخطوطات وكتب وأوراق وعكف باحثاً عن تعويذة أو طلسم للحماية، لسوء حظه أن كل ما وجده كان للجلب والتسخير وكلها لجن ترابي ضعيف لا يمكنه الدفاع عنه أمام مردة الجن الأشداء أو عفاريتهم.**

**بدأ يفقد الأمل في أن يجد ضالته فألقى بالأوراق والكتب كلها أرضاً وهو يطلق السباب بلا توقف، انتفض فجأة وارتعدت فرائسه حين سمع طرقات متتالية على باب حجرة البيت، تُرى من الطارق؟**

تجمد في مكانه لعل القادم يملُّ ويرحل دون جدوى، الطرقات لا تتوقف، يبدو أن صاحبها مصرٌّ على الدخول، تلفت حوله بعصبية، وجد سكيناً فوق الكومود بجوار السرير كان قد استخدمه في فتح صفيحة الفاكهة المعلبة الراسخة هي الأخرى بجوار السكين، فالتقط السكين ونهض وذهب إلى باب حجرة الأسرار وفتحه بحرص، حاول أن ينظر من خلال هذه الفتحة الصغيرة لكن لم يكن موقع الحجرة يسمح له برؤية باب المنزل، وإنما يرى الرواق المؤدي إلى الصالة الفسيحة فقط.

توقف الطارق أخيراً، تمنى نادر لو ملّ هذا السائل وذهب في طريقه، سرعان ما تبددت أمنيته، حين عادت الطرقات بقوة أكبر هذه المرة، يا لك من لحوح أيها الطارق، تحولت الطرقات إلى دفعات قوية، يبدو أن الطارق ملّ الطرق فعلاً، لكنه قرر اقتحام المكان عوضاً عن الرحيل بسلام، بضعة دفعات أخرى أكثر قوة فانهار الباب.

في نفس تلك اللحظة التي أدرك فيها نادر انهيار الباب قام بإغلاق باب حجرة الأسرار ووقف وقد ألصق ظهره بالباب، لم يعد هناك ما يمنع عنه ذلك القادم إلا أن الحجرة مؤمنة ومحمية ولا يمكن لأي مخلوق أن يقتحمها عنوة، إلا إذا ...

اتسعت عيناه رعباً وهو يفكر في هذا الاستنتاج، لو أن ناصورى وعشيرته تخلو عنه فمن المؤكد أن الحجرة باتت بلا حماية، وربما زالت البوابة التي تصل بين عالم الإنس وعالم الجن، المهم الآن من القادم؟ هل هو أحد معاوني مهدي علام وجاء للانتقام؟

قبل أن يسترسل في تساؤلاته طرق الباب حيث يلتصق بظهره، فاندفع للأمام في هلع واستدار محدقاً في الباب وقد بدأ يلهث في عنف، أطلق سباباً خافتاً عندما تكررت الطرقات على الباب من جديد، ثم

دار مقبض الباب في بطء يثير التوتر فتراجع هو خطوتين للخلف وقد أوشكت عيناه أن تقفزان خارج محجريهما.

انفتح الباب في حذر، فظهر على الباب شاب مهندم ذو لحية خفيفة مهذبة بعناية، إنه مُحمد الذي وقف يحدق في نادر وفي السكين الحاد في يده، لحظات تجمد خلالها المشهد تماماً، مُحمد تجيشت مشاعره، ها هو يقف أمام عمه الآثم، والذي كان من المفترض أن يقوم هو بالمساهمة في القضاء عليه حتى صبيحة هذا اليوم، عندما زاره طرّاق وأخبره بأن العهد الشيطاني قد تمّ نقضه، هذا الرجل هو عمه الذي تتساقط من كفيه دماء الأبرياء كالمطر، هذا الرجل هو عمه الذي باع كل شيء في سبيل الشيطان، فتخلى عنه الشيطان كما يفعل دائماً.

أما نادر فتعلقت عيناه بالشاب وهو يجهل من يكون، يفكر أن هذا القادم جاء ليقتص لدماء مهدي علام، كيف سينقض عليه؟ هل يحمل سلاحاً نارياً؟ لو فعل فلن تصبح هذه السكين ذات أي فائدة تذكر، والمهم الآن هل سيحدث له شيء لو خطى داخل الحجرة؟ أم أن الحجرة أصبحت بلا حماية أو حرس؟

نطق مُحمد وقال:

"إذن فأنت موجود .. لماذا لم تُجب يا ..."

كاد يناديه يا عماه لولا أن لسانه عجز عن نطقها، لمعت عيناه وقد بدأت بعض الدموع في التكون في داخلهما، صاح نادر بعصبية مفرطة:

"ارجع .. ارجع من حيث أتيت حتى لا أؤذيك .. ألا تعرف من أنا أيها الطفل؟!"

هز مُحمد رأسه في أسى ثم قال:

"أنا ما قطعت كل تلك المسافة لأرجع خالي الوفاض .. عليك أن تهدأ ....."

قاطعه نادر بسباب بذيء، أشاح بعده بوجهه وهو يستغفر الله، التفت مرة أخرى إليه وخطى إلى داخل الحجرة، ومع دخوله طار عقل نادر وقد تيقن من زوال كل وسائل حمايته، دار بسرعة إلى خلف الفراش وهو يطلق السباب والوعيد، ارتبك مُحمد وتوقف عن السير وهو يفكر كيف يستوعب حالة عمه العصبية ويهدئ من روعه ليتمكن من حواره.

يبدو أن نادر فقد عقله، فقد قفز واقفاً فوق الفراش وهو يصيح بجنون:

"اللعنة عليك وعلى مهدي اللعين .. اللعنة على ناصوري وشيصبان .. اللعنة على عارف النجاتي"

أطلق السباب من فمه كقذائف مدفع سريع الطلقات، ثم بدأ يصرخ بأقصى قوته ويقول:

"أنا نادر السلطان .. أنا السلطان .. لن ينال مني أي مخلوق .. هل تسمعني؟ أنا لا أخسر أبداً .. لا أخسر"

وفي اللحظة التالية رفع السكين الحاد أمام عينيه، تراجع مُحمد في قلق وهو يظن أن عمه الذي فقد اتزانه قد يصوبه نحوه، لكنه تفاجئ بما حدث.

في لحظة واحدة مرر نادر النصل الحاد على عنقه وبخع نفسه في جنون، نحر عنقه من الوريد إلى الوريد فلم تعد له أي فرصة في النجاة، سقط على الفراش وهو ينتفض، لم يجد مُحمد في نفسه أي مشاعر كراهية أو بغض تجاه الرجل الذي يلفظ أنفاسه في صمت، لكن غلبه الأسى والحزن على ما رآه .. عمه عاش كافراً ومات كافراً.

## (5)

**الزمان: اليوم التالي لموت نادر.**

**المكان: فيلا نادر.**

**وقفت نوال تستقبل هاني وزوجته سارة وبرفقتهما مُحمد ومصطفى ولديهما، سلموا عليها وقدموا له العزاء وهي في حالة وجوم، ثم تقدمتهم إلى حجرة الصالون فتبعوها في صمت، استقروا داخل الحجرة وتكلم هاني قائلاً:**

**"كنت أتمنى أن ألتقي بزوجة أخي في ظروف أخرى .. لكنها إرادة الله"**

**قالت وهي لا تصدق ما يحدث:**

**"أنا لا أدري ما أقوله .. لقد تلقيت أسوأ خبر في حياتي كلها حين أتى مُحمد وأبلغني بما حدث، وأكثر ما آلمني أنني حتى لم أودعه، ولم أحضر جنازته، ليته ما عاد إلى قريته لبيع ذلك المنزل، نحن لم نكن في حاجة لمال هذا البيت."**

**لم تتمكن من إكمال عبارتها وقد غلبتها دموعها، تبادلت سارة وهاني نظرة جانبية سريعة قبل أن تقوم وتجلس بجوار نوال وتحتضنها**

وتربت على ظهرها، حاولت أن تتغلب على دموعها وقالت من بين الدموع:

"كان من الواجب أن تُخبروني قبل دفنه لأودعه."

قال مُحمد بسرعة:

"لم نكن نعلم بأمر زواج عمي عند وفاته، لقد تفاجئت بهذا الأمر من بطاقة تحقيق شخصيته، وكنت قد أتممت إجراءات الدفن بالفعل حين لاحظت هذا الأمر"

قالت سارة مواسية:

"لقد كان الخبر صادماً ومفاجئاً لنا جميعاً يا عزيزتي، فلم ينتبه مُحمد لهذا الأمر إلا بعد الدفن وهو يجمع حاجات نادر.. المهم أنه بادر بدفنه بأقصى سرعة كما يأمر الشرع .. فإكرام الميت بسرعة دفنه .. أليس كذلك؟!"

أُجهشت بالبكاء، وقالت بصعوبة:

"يا ليتني مت أنا بدلاً منه .. كيف سأحيى بدونه؟"

تكلم هاني:

"لا تحملي هم أي شيء يا زوجة أخي، أنت جزء من العائلة الآن ولك علينا حق الرعاية .. اعتبري نفسك أخت مُحمد ومصطفى ولا تعبئي بشيء أبداً"

نظر مُحمد فجأة في وجوه أسرته قبل أن يقوم قائلاً:

"اسمحوا لي بالخروج دقيقة إلى الحديقة .. هناك اتصال هام جداً عليّ أن أجريه الآن"

نظر له والده معاتباً فليس هذا هو الوقت ولا المكان المناسبين للأحاديث الهاتفية مهما كانت، لكنه نظر إلى الأرض وانطلق خارجاً ولم يحكم غلق باب الفيلا خلفه، سار بضعة خطوات بمحاذاة الفيلا وتوقف وهو يقول:

"مرحبا يا طرّاق"

أجبته:

"مرحبا بابن النجاتي .. لقد أحسنت صنعاً أيها الشاب"

مط مُحمد شفتيه في ضيق وقال:

"كان لابد لي أن أفعل ما فعلت .. رغم أنني أكره أن أفعل مثل هذه الأمور .. لكني اضطررت حتى لا يفتضح أمر عمي وأسرتنا كلها، وأدعو الله أن يغفر لي اضطراري لهذه الرشوة .. أما هو فحسابه عند العدل الحق سبحانه وتعالى"

ابتسمتُ طبعاً مُحمد لا يراني .. قلت:

"لا أقصد ما فعلته لتدفن عمك دون تحقيق أو تشريح لجثته وكأن وفاته كانت طبيعية .. وإنما أقصد أنك أخبرت والديك بالأمر كله، وأقنعته بضرورة مساعدة نوال فهي لا ذنب لها في شيء .. ولم تكن تعرف حقيقة زوجها."

أومأ مُحمد وقال:

"هذا واجبنا نحوها .. لقد باتت فرداً منا"

قُلتُ له:

"بارك الله فيك أيها الشاب .. هذه الشابة زوجة عمك كانت بحاجة لمن يقدم لها يد العون طوال حياتها .. ويمكنكم تعويض بعضاً مما اقترفه زوجها برعاية ولده القادم."

قطب مُحمد حاجبيه وكرر في دهشة:

"ولده؟!"

قُلتُ له:

"نعم، ولده .. ولده الذي ينمو في أحشاء أمه منذ شهور .. الأمر ليس سراً بالطبع وهي ستخبركم بذلك بكل تأكيد .. والآن عُد إليهم أيها الشاب"

وقف مُحمد للحظة ثم سألني:

"هل سنلتقي مرة أخرى يا طرّاق"

ابتسمت ابتسامة واسعة وأجبته:

"من يدري يا بن النجاتي؟ من يدري؟!"

قال:

"إذن إلى اللقاء."

قلت:

"إلى اللقاء"

استدار عائداً إلى داخل الفيلا، تبعته وهو لا يراني ولا يشعر بي، تسللت إلى داخل الفيلا قبل أن يوصد بابها خلفه، انضم هو إلى أسرته، من الواضح أن سارة نجحت في تهدئة نوال فتوقفت عن البكاء، كانوا يتحدثون عن أمر زواجها بنادر .. كانت المسكينة تحاول أن تُخفي ماضيها عنهم، هم أيضا لم يحاصروها بالأسئلة التي تفضح المستور.

تكلم هاني مخاطباً مصطفى قائلاً:

"مصطفى! بالله عليك قم بتشغيل جهاز التلفاز هذا على قناة القرآن الكريم من مكة المكرمة" قالها هاني وهو يشير صوب التلفاز الكبير المثبت على الجدار.

أطاع الفتى والده، قام وذهب إلى الشاشة الكبيرة، قام بتشغيلها مستخدماً جهاز التحكم عن بعد الذي كان أسفلها، دخل إلى قائمة القنوات وبدأ يبحث عن قناة القرآن الكريم.

شعرتُ أن عائلة النجاتي قد تطهرت أخيراً من وزرها، وآن الأوان لهؤلاء اللذين أمامي أن يترابطوا كعائلة حقيقية.

لقد عرفت يا صديقي من أنا الآن، لم أود أن أفصح لك عن شخصي في بداية الحكاية، فهل تمكنت من توقع من أكون أم أنك تفاجئت؟

اعذرني لأنني لم أسرد لك تفاصيل استجوابي للعُمار أو القرناء أو الأسيرين اللذين وقعا في يدي، فكل ما فعلوه أن أخبروني بتفاصيل الأحداث التي لم أعاينها بنفسي، وها أنا قد نقلتها إليك بكل أمانة.

وصل مصطفى أخيراً إلى قناة القرآن الكريم، وتوسطت الشاشة صورة الكعبة المشرفة وألوف الناس يطوفون بها، وارتفع صوت القارئ يتلو بالمصادفة من سورة الجن، وتحديداً الآية السادسة:

" وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6)"

تمت بحمد الله ،،،

# المراجع

1- عالم الجن والشياطين – موسوعة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة- تأليف د/عمرو سليمان الأشقر.

2- كتاب السحر تأليف محمد محمد جعفر.

3- دائرة معارف القرن العشرين –المجلد الثالث- تألق محمد فريد وجدي.